زينب نبُّوه بحبوح

زينب فواز

رائدة من أعلام النهضة العربية الحديثة

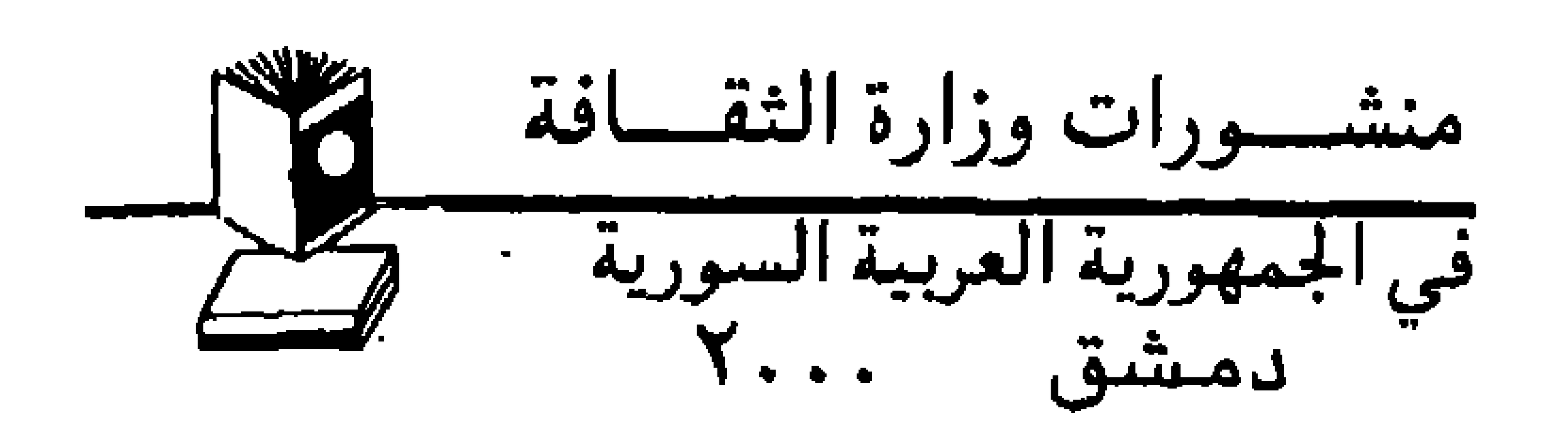
١٨٤٦ - ١٩١٤

زينب نبوّه بجبوج

زينب فواز

رائدة من أعلام النّهضة العربيّة الحديثة

١٨٤٦ — ١٩١٤


منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٠

زينب فواز رائدة من أعلام النهضة العربيــة الحديثـة: ١٨٤٦-١٩١٤/
زينب نبوه بحبوح. - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٠. - ٢٠٠ص؛ ٢٤سم. -

١- ٩٢٨: فواز، زينب ب ٢-٧٢ر٩٢٠ ب ح ب ز
٣- العنوان ٤- بحبوح
مكتبــة الأســـد

الايداع القانونـي: ع - ٨٦٠/ ٥/ ٢٠٠٠

علينا أن لانُخدع بأن المرأة تبدو في الظاهر صالحة للحمل والحضانة فقط، فما ذلك إلاً لأن حالة العبودية التي انشأنا عليها نساءنا أتلفت مواهبهن العظيمة».

«يجب على النساء أن يقمن بخدمة المجتمع والدولة قيام الرجال، وأن الكثير من فقر عصره وشقائه يرجع إلى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه كأنها نبات أو حيوان أليف لمجرد متاع فان، بدلاً من أن يمكّنها من المشاركة في إنتاج الثروة المادية والعقلية وفي حفظها».

* المفكرابن رشد ١١٢٦-١١٩٨م

« جوامع سياسة أفلاطون»

عربون وفاء

يستوقفك ، بإعجاب، من أمر السيدة زينب نبُّوه، صاحبة هذا الكتاب، ذلك التعدد في مجالات عطائها الهادف فهي إذ تطالعك ، على نحوٍ متواصل الحلقات، بوجه المجنَّدة، المتَّقدة حماساً وإخلاصاً، في حومة العمل السياسي من موقع حزبي متقدّم تراها منصرفة، بدأب وتفانٍ، إلى الإسهام في، حركة الدفاع عن قضية المرأة السورية بخاصة والعربية بعامة كما تراها عاكفةً، كلما أسعفها الوقت، على معالجة هذا الشأن العام أو ذاك من شؤون مجتمعها السوري- العربي بالكلمة المسؤولة تطلقها بحرارة في الناس سواء من على منبرٍ للحوار الجاد أو من خلال مطبوعة رصينة.

ويستوقفك ،أيضاً، من أمر السيدة زينب نبُّوه أنها لا تصدرُ في عطائها، مهما تعددت مجالاته، إلّا عن هم مركب واحد هو من همّ الإنسان في وطنها العربي الوثيق الصلة بهمّ الإنسان تحت كل سماء ...

ولعلها في انصرافها الدؤوب، بحثاً عن الأجوبة الصائبة على أسئلة المرأة العربية، قد التقت بزينب فواز فرأت في وجهها معادلة الأصالة والتجدد فجذبها إليه جذباً واستأثر باهتمامها، فعكفت على قراءته بتأنٍ وروية، فاكتشفت فيه حقيقة تاريخية باهرة، تقع في الصميم من مشروعها المرصود لقضية المرأة العربية، فامتلأت نفسها بفيض من مشاعر الغبطة والاعتزاز بهذا الاكتشاف. إلاّ أنْ سحابة من الحزن والغضب سرعان ما عكّرت عليها صفاء هذه المشاعر ، فلماذا يا ترى ؟

لأنها وجدت أنَّ إهمالاً جائراً ومتمادياً قد حجب ذلك الوجه طويلاً عن الأنظار، وألقى به في زاوية النسيان، إلى أن قيض له من رفع عنه بعض ما تراكم عليه من غبار النسيان وهو المجلس الثقافي للبنان الجنوبي الذي بادر إلى إعادة طبع ونشر أثرين بالغي الأهمية من الآثار الأدبية التي أبدعتها زينب فواز، في العقد الأخير من القرت التاسع عشر، فاستحقت بهما وسام الريادة سواء في كتابة النص الروائي أو في كتابةالنص المسرحي نظماً وهذان الأثران هما: «حسن العواقب» و «الهوى والوفاء».

لقدانكبّت على إعادة النظر فيهما، بدقة الباحث وحدب المحب، الكاتبة فوزية فواز، أمينة السرفي المجلس الثقافي، فاستنفرت جهدها في تحقيقهما وتصحيح الأخطاء المطبعية الكثيرة فيهما ووضع النقاط والفواصل التي يقتضيها السياق ومنطق البيان حتى إذا اطمأنت إلى كمال صنيعها أو نحو ذلك سارع المجلس إلى إعادة طبعهما والخروج بهما إلى قرّاء العربية، عام ١٩٨٤، في حلَّة جديدة وتقديم مسهب غني يضع بين يدي القارىء، لأول مرة، صورة موثقة عن سيرة حياة زينب فواز وعن كفاحها المرير في بناء ذاتها، متنقلة، بطموحها وإرادتها، من جبل عامل، حيث ولدت، إلى مصر فالشام فإلى مصر مرة ثانية وأخيرة... والجدير بالذكر، هنا، أن هذه الصورة الموثقة تضمنت، إضافة إلى سيرة حياتها، ثبتاً مفصلاً بأعمالها الكتابية، في الرواية والمسرح وفي الاجتماع السياسي وفي قضية المرأة على وجه الخصوص، ما أغنت بها المكتبة العربية وفيها الكثير من المحاولات الجديدة غير السائدة في تلك الحقبة المفصلية من التاريخ العربي المعاصر...

كثيرة هي الأحداث والتطورات التي اكتظّت بها تلك الحقبة التاريخية التي عاشت في غضونها زينب فواز عيش المغالبة والمجالدة، عيش العصامية بامتياز استثنائي...

وكثيرة هي عناصر التفوق والتألق والريادة التي تمتعت بها على الرغم من اختلاف المحن القاسية عليها وتربص الظروف السيئة بها من كل جانب سواء في حلها أو الترحال ...

ومهما يكن من أمر تلك الظروف فإنها - طابت ذكراها- قد أصابت، في حياتها نجاحاً كبيراً تجلّى في المنزلة العالية التي احتلتها في الأوساط الثقافية والاجتماعية في كل من مصر والشام.

ولكن، مع شديد الأسف، فإن تلك المنزلة سرعان ما تهاوت عقب غيابها مباشرة عن هذا العالم فلم يبق لها من ذكر يُروى.

وحسبنا، هنا، أن نشير، للتدليل على ذلك، إلى أن أحداً ممن أرخوا لعصر النهضة قد التزم الموضوعية في القراءة والأمانة في النقل والعدالة في الحكم فأنزل زينب فواز حيث تستحق من مكانة جنباً إلى جنب مع الرواد الأوائل من وجوه ذلك العصر، من هنا لحق بها غبن جائر، بعد الوفاة، فحُرمت الأجيال العربية فرصة التعرف على وجه نهضوي لا يقل وزناً عن تلك الوجوه المضيئة التي عمرت بها بطون الكتب واستدعت الكثير من الكتابات في شأنها وما تزال تستدعي المزيد إلى يومنا الراهن ...

وربما يكون هذا الغبن الذي لحق برائدتنا ظلماً وإجحافاً قد دخل عاملاً رئيساً في جملة العوامل التي دفعت بالسيدة زينب نبُّوه إلى الإسهام في إظهار الحقيقة وإعادة الاعتبار إلى الموضوعية في كتابة التاريخ وذلك بتحرير كتاب مستقل عن سميتها زينب فواز. لقد حررّته باذلةً قصارى جهدها في الوقوف على مصادره وفي جمع مادته وصوغ لغته ثم في الإشراف على طبعه ليخرج إلى الناس بمعالم ذلك الوجه النهضوي الذي تظافر عليه الزمن فحجبه عن الأنظار قرابة المئة عام ...

يبقى أن نشير ، أخيراً، إلى أنَّ هذا الكتاب ما كان له أن يرى النور لو لا الهاجس المثقل بقضية المرأة الذي سكن صاحبته، السيدة زينب نبُّوه، واقتادها إلى حلبة النضال انتصاراً لهذه القضية العادلة ولعل اللقاء الأول بين « الزينبيين» قد انعقد على هذه الجلسة ثم توثقت الصلة بينهما وتطورت، برغم فارق الزمن ، فأثمرت هذا النتاج الكتابي الوازن ...

وما يدعونا، في هذا الصدد، إلى الإعجاب الكبير بالرائدة زينب فواز إقدامها المبكر على التصدي الجسور لِتقاليد محيطها الاجتماعي ودعوتها التنويرية إلى تحرير المرأة وذلك قبل ظهور كتاب قاسم أمين«تحرير المرأة » بسنوات قاربت العشر ... أما الدليل على صحة هذا الرأي فقد ظهر جلياً على صفحات جريدة «المؤيد» المصرية في مقال نشر لزينب فواز عام ١٨٩٢ بعنوان « تقدم المرأة » بيد أنَّ الدليل الأبلغ في معناه والأشد جلاءً في مقصده فقد ظهر في كتابها الموسوعي «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» الذي شاركت به في المعرض الكولومبي عام ١٨٩٣ فكان مطالعة ضافية حارة أشادت فيها بمؤهلات المرأة وقدراتها، ودافعت فيها عن حقوقها المشروعة في التحرر والتقدُّم والمساواة ...

وبعد فقليل في حق السيدة زينب نبُّوه أن نعرب لها عن بالغ تقديرنا على جميل صنيعها في وضع هذا الكتاب عربون وفاء وشهادة عدل في حق زينب فواز صاحبة السبق في الانتصار لقضية المرأة العربية وفي كتابة النص الروائي بلغة الضاد.

فإلى المزيد من هذا العطاء المثمر . .

بيروت في ٢٠٠٠/٥/٥

حبيب صادق

مقدمة

زينب فواز، علم من أعلام النهضة العربية الحديثة. أدبية ومفكرة وناقدة وشاعرة.

من أرض الجنوب الخيرة طلعت، مثل زهرة برية، حاملة كل ما تنطوي عليه أزهار البراري من تألقٍ وحيوية.

لماذا زينب فواز؟

١ - التأكيد بالدليل الحسي على ثراء الإنتاج الأدبي والفكري لرائدات النهضة في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين. فلم يكن الإنتاج الأدبي والفكري وقفاً على الرجال وحدهم، بل كان بجانب منه، حصيلة جهود المرأة ونبوغها برغم كونها المعرّضة أكثر من الرجل لصنوف القهر والعذاب. وهؤلاء الرائدات لم ينلن حقهن في احتلال مكانهن الجديرات به في قائمة المشاهير من أدباء عصر النهضة:

إن كل الذين دونوا لعصر النهضة من العرب، لم يلتزموا الموضوعية ويقوّموا تقويماً من شأنه أن يساعد على إبراز وجوه نسائية ثقافية نهضوية، لا تقل قيمةً وتأثيراً عن الرواد الذين برزوا في تلك المرحلة.

٢ - وإذا كانت الرائدات الأوليات لم ينلن ما يستحققنه من تكريم، فزينب فواز الرائدة المجهولة لم تنل الحد الأدنى من المعرفة والتكريم. وهي التي تحدثت عن أربعمائة وستٍ وخمسين امرأة من الشرق والغرب في كتابها «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»، مسجلةً إنجازات أخواتها في كل من الشرق والغرب، لم تذكر أي شيء عن نفسها وعن أسرتها، وأنكرت ذاتها تمشياً مع آداب عصرها، في ما يعدونه فضيلة خلقية.

ومما يحزُّ في النفس أن أحداً من كبار المؤرخين والكتّاب الذين صرفوا جلّ اهتماماتهم للتأريخ لحياة الأدباء والمفكرين في عهدها، لم يولها من الاهتمام ما أولوه لمن هنّ دونها في المكانة الأدبية والفكرية.

قد يكون هذا التجاهل عائداً لأسباب طبقية واجتماعية، فهي ليست من الأسر المرموقة في ذلك الحين، كباحثة البادية وعائشة التيمورية وهدى شعراوي ومي زيادة وغيرهن. فقد نشأت في أسرةٍ فقيرةٍ وفي بيتٍ ريفي متواضع كمعظم بيوت الفلاحين في ذلك الحين.

٣ - تتميز زينب فواز عن سواها من رائدات النهضة بعصاميتها. فقد خاضت غمار قضية تحرير المرأة لنفسها وبنفسها وحدها بدون رعاية. فتعالت باختيارها الأدب والفكر على الفقر وتسامت على الدهر، في عصرٍ تميز بالجهل والأمية والإقطاع السياسي. وإن من يطلع على مقدمات كتبها، وما كان يأتيها من تقويم لهذه الكتب، يجد فيها دليلاً على شهرتها في الأوساط الأدبية والفكرية في ذلك الحين. ومن المؤسف أن الآثار الأدبية والفكرية التي تركتها زينب غير متوفرة فما طبع منها ولأول مرة منذ قرن، فقدت آثاره. والباحث عن نتاج هذه الأديبة والمفكرة لا يظفر إلا بالقليل القليل.

٤ - زينب فواز ابنة(جبل عامل) هذه المنطقة الجنوبيةمن لبنان، المشهورة بوفرة إنتاجها الأدبي والفكري، وبوطنية أبنائها الذين ضرب بهم المثل في البذل والتضحية خلال مراحل تاريخهم، وخصوصاً إن المنطقة تواجه منذ عقود، الهمجية الصهيونية بكل صنوفها وصلافتها من احتلال وهدم وتشريد وأسر. فهي حصن لبنان في جنوبه والحاجز الدفاعي الأول عن الوطن، رغم تعرضها لسياسة الإجحاف والحرمان والإهمال من السلطات الرسمية في كل العهود. وزينب فواز المولودة في بلدة تبنين إحدى حواضره العريقة، هي ابنة هذه المنطقة.

لقد وجدْتُ صعوبةً كبيرة في تعقب آثار هذه الأديبة وإعطائها ما تستحقه من اهتمام ... حتى في سورية التي عاشت فيها سنوات ومارست بعض نشاطها الأدبي، وتركت في قلوب السوريين كل حبٍ وتقدير وإعجاب، تجلى في اسم زينب فواز الذي أطلقوه على مدرسةٍ ابتدائية في دمشق- سوق الصوف الواقع في شارع مدحت باشا.

غير أن الكثير من الباحثين والمفكرين السوريين المعاصرين يقولون، إنهم سمعوا بالاسم ولكنهم لا يعرفون عن هذه الأديبة شيئاً.

ويمكن هنا أن نشير إلى الدور الهام الذي قام به ولا يزال المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، وأمينه العام الأديب والباحث الأستاذ حبيب صادق في المحافظة على التراث العاملي. والعمل على كشف كنوزه، ونشر أهم آثاره من المخطوطات القيمة، والعناية بنتاج أبنائه الثقافي، وهكذا بالنسبة لزينب، فقد بذل المجلس جهوداً حثيثة في محاولةٍ لجمع التراث الزينبي المتناثر المهمل. في لبنان وسورية ومصر حيث عاشت ومارست نشاطها الفكري والأدبي. فقد أعاد نشر ما توافر لديه من آثار هذه الأديبة العاملية. فكان أول هيئة في لبنان والعالم العربي تقوم

بمبادرتها بإماطة اللثام عن هذه الرائدة الجنوبية، حيث تم تحقيق نشر أثرين في مؤلف واحد، هما رواية «حسن العواقب أو غادة الزهراء»، ومسرحية شعرية بعنوان «الهوى والوفاء». وقد قام بتحقيق هذين الأثرين الكاتبة والأديبة فوزية فواز المنتسبة إلى عائلة زينب فواز نفسها، عضو الهيئة الإدارية للمجلس الثقافي، التي أعطت الكثير من الوقت والجهد لإعداد هذين الأثرين الهامين. ويتابع المجلس العمل من أجل نفض غبار النسيان عن آثار هذه الرائدة والدفاع عن حقها في احتلال مكانتها الجديرة بها، لعلها تجد من التكريم ما يليق بها، كما يكرَّم سواها ممن عاصرها.

لقد كرمت مصر مؤخراً أحد أدبائها المعروفين «قاسم أمين» بمناسبة مرور مائة عام على صدور كتابه «تحرير المرأة»، وهذا يدعو إلى الغبطة والتفاؤل. ولكن مما يدعو إلى الأسف أن تهمل في الوقت نفسه أديبة لمعت في نفس الفترة في سماء مصر، ونشرت معظم مقالاتها في مختلف الصحف والمجلات المصرية وطبعت نتاجها في ربوعها، ونالت شهرتها الواسعة في محيطها تاركةً ما تبقى من آثارها مدفوناً هنا أو هناك في غياهب النسيان، أو تحت غبار الغبن والإهمال.

إن دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة جاءت على طريق شبه ممهدة، شقته إسهامات نسوية وجدت طريقها إلى العلن منذ بداية العقد التاسع من القرن التاسع عشر، على يد رائدات معروفات، عالجن القضايا الاجتماعية عموماً، وقضية المرأة خصوصاً، وما تتعرض له من قهر وإحباط. وانتقدن المنظومة الاجتماعية التي تمارس قهرها التاريخي على النساء. وتقف زينب فواز بين هؤلاء النسوة بصلابة أكثر واضعة قضية تحرير المرأة في نصاب جديد. فـ«الرسائل الزينبية» الداعية لمساواة المرأة بالرجل في العلم والعمل والسياسة، وحسب رأي وإجماع ثلة من

المؤرخين اللبنانيين والمصريين، كانت الصوت الأول في الدعوة إلى النهضة والتحرير قبل مي زيادة وباحثة البادية وهدى شعراوي من الناحية الزمنية في القضايا والمواضيع التي تطرقت لها، ليس في وطنها لبنان فحسب، بل وفي الوطن العربي والشرق عموماً.

لقد واجهت زينب واقعاً اجتماعياً متدنياً مازالت صوره المؤلمة موجودة حتى الآن تحقّر من شأن المرأة. وقد عبرت بصدق في روايتها «حسن العواقب» الصادرة عام ١٨٩٩م – وهي أول رواية عربية– عن النموذج الذي ينسجم مع أفكارها، التي تؤكد ضرورة التعليم والعمل للمرأة، واحترام عقلها وحقها المطلق في اختيار أسلوب حياتها.

كما نراها في «الرسائل الزينبية» تنادي بمسلّمات جديدة في موضوعات المرأة، مثل سن قوانين تنظم حياة المرأة وتضمن لها حقها بالعلم والعمل، وبذلك فقد سبقت قاسم أمين، إذ إن رسائلها الزينبية كانت تنشر في الصحف المصرية قبل عام ١٨٩٢م بينما لم ينشر قاسم أمين كتابه إلا عام ١٨٩٩م.

لا شك أن دعوة قاسم أمين ورواد النهضة لتحرير المرأة أتت انعكاساً للتغيرات الكبيرة، والتي كان أساسها تغيرات سياسية واقتصادية تمت في المجتمع العربي، وفرضت اتجاهات جديدة في المجتمع. ولم تكن قضية المرأة في حينه بالأمر السهل، بل كانت قضيةً معقدةً تعاني منها المجتمعات الشرقية الإسلامية، ولهذا أحدث كتابه ضجةً اجتماعية كبيرة ومعركةً فكريةً حامية في مصر والبلدان العربية.

لقد آمن قاسم أمين ورواد عصر النهضة بأن السبيل الوحيد للنهوض بالمجتمع وإصلاحه هو تحرير المرأة. وتحريرها يكمن في العلم والعمل. وقد عملوا على إنجاز قاعدة للعمل لتحرير المرأة. ولم يتمكنوا أن يحققوا أكثر من ذلك بسبب عدم وجود تجمعاتٍ أو تنظيماتٍ أو حركاتٍ سياسية تدعم مثل هذا الطرح في حينه، فجاءت آراء هؤلاء الرواد دعماً وتأكيداً لما طرحته الرائدات.

ورغم مرور مائة عام، وتبدل الأوضاع، ووجود مناخ دائم أكثر لهذه الأفكار في أيامنا هذه، إلا أنه ما زال هناك تعتيم على أعمال هذه الشخصيات وكتاباتها، ومؤتمر القاهرة الأخير بمناسبة مرور مائة عام على صدور كتاب «تحرير المرأة» له أهمية استثنائية وانعكاسات إيجابية على مسألة التطور عموماً.

وأتساءل هل هناك بؤس أكبر من أن تطورَ مجتمعاتنا العربية خلال القرن العشرين كله، وسياستنا وعقائدنا، وأفكارنا، وفلسفتنا، لم تستطع أن تتجاوز آراء هؤلاء الرواد والرائدات، أو أن تستطيع تطبيق ما جاء في طروحاتهم حول حقوق المرأة، وهو يشكل الحد الأدنى بواقع الحال؟.

والآن ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، وفي ظروفنا الراهنة، وبوجود إشكاليةٍ تفرضها الرأسمالية والعولمة وهي تسليع كل ما يخصّ المرأة، وإبعادها عن العمل السياسي، والشأن العام، إلى جانب النضال من أجل نيل المرأة حقوقها كاملةً غير منقوصة. ألا يفرض هذا، على القوى التقدمية والأحزاب السياسية والنقابات العمالية، بذل الجهود من أجل النهوض بالمرأة للنهوض بالمجتمع؟.

إن أفكار الشيخ محمد عبده ورفاعة الطهطاوي وقاسم أمين وغيرهم، إلى جانب أفكار الرائدات المدافعات عن حقوق المرأة، كانت النبراس المنير. وسيبقى كل ما طرحوه في حينه هاماً ومؤثراً من أجل دفع قضية المرأة إلى الأمام.

فقضية المرأة تبقى جزءاً من قضية المجتمع، وتحريرها هو جزء من تحرير المجتمع كله، من النظام الرأسمالي وقيمه التجارية والأخلاقية، وتحويله إلى مجتمع ديمقراطي واشتراكي حقيقي يحقق المساواة والعدالة لجميع البشر بصرف النظر عن لونهم أوجنسهم أو طبقاتهم الاجتماعية.

فهل يمكن تغيير هذا الوضع في مستهل القرن الحادي والعشرين وإكمال الأعمال الجليلة لرواد النهضة ورائداتها؟.

الباب الأول

النهضة العربية

الفصل الأول : النهضة العربية في القرن الـ ١٩ والعوامل الرئيسة التي أسهمت في قيامها.

الفصل الثاني : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلاد الشام.

الفصل الثالث : الوضع الثقافي والاجتماعي في جبل عامل.

النهضة العربية في القرن التاسع عشر
والعوامل الرئيسة التي أسهمت في قيامها

بدأت النهضة العربية في مطلع القرن التاسع عشر بعد أحداث هامة تعرضت لها المنطقة العربية أبرزها[1]:

١ - الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر، وما دفعت إليه من إصلاحات قام بها محمد علي باشا في مصر، وابنه إبراهيم محمد علي في بلاد الشام وقد أدت، مع عوامل أخرى، إلى تصدع الإقطاعية العثمانية، مما أفسح المجال للنهوض العربي.

٢ - تعاظم الدور الأوربي في شؤون الشرق العربي وخاصة في بلاد الشام، الذي لم يكن له وجه الاحتلال العسكري المباشر. إنما أوجه أخرى منها التجارة ونقل العلوم والمعارف، من خلال الإرساليات والبعثات العلمية التي رافقته.

وقد لعب هذا التدخل دوراً مزدوجاً غازياً مستعمراً هيمن على المنطقة من جهة، وإيجابياً محفزاً من جهة أخرى، إذ حمل الفكر البورجوازي المبكر المناهض للإقطاعية والداعي إلى التحرر والتطور والانعتاق، مما ساعد على إحداث تغيير في التطور اللاحق للمنطقة.

٣ - التأثيرات التراثية المتعددة الألوان والأشكال ذات الجوانب الثورية المضيئة في الحضارة العربية الإسلامية. والجوانب المرسخة للتخلف، عهود

---

(١) - الباحث والمؤرخ د. عبد الله حنا -النهضة والاستبداد.

الانحطاط من القرن الرابع عشر إلى القرن التاسع عشر وتحديداً بعد انهيار الحضارة العربية الإسلامية.

٤ - بداية تكون البورجوازية، تلك الفئة الاجتماعية التي عبرت عنها آراء المثقفين المتأثرين بالغرب الرأسمالي، خاصة بعد الإصلاحات ذات المحتوى البورجوازي التي قام بها محمد علي في مصر وبلاد الشام بحلول عهد التنظيمات.

٥ - «الإصلاحات العثمانية» ذات الطبيعة البورجوازية الليبرالية. أي الانتقال من أحد أشكال الإقطاعية العثمانية إلى شكل آخر أكثر تطوراً وتلازماً مع الأوضاع الداخلية والخارجية المستجدة في القرن التاسع عشر. وهذا الشكل تناسب مع مرحلة الانتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية.

٦ - عمق الانتفاضات الفلاحية التي عمت عدة مناطق عربية على امتداد القرن التاسع عشر.

٧ - بداية ظهور عصر التنوير في مصر أولاً، ومن ثم في بلاد الشام.

كان معظم البلدان العربية حتى بداية القرن العشرين خاضعة للحكم الإقطاعي التركي العثماني، وقد اختلف الوضع بين بلد عربي وآخر، باختلاف السيطرة العثمانية. فكانت مصر تتمتع باستقلال ذاتي عن السلطة العثمانية وتتبعها اسمياً فقط. أما بلاد المغرب العربي التي غزاها الاستعمار الفرنسي فكان لها خصوصية معينة، بينما كانت بلاد الشام ترزح تحت نير احتلال عثماني مستبد أوصل الشعب والبلاد إلى أوضاع صعبة ومعقدة.

وعندما شعر محمد علي بقوة مصر، حاول طرد العثمانيين من الحجاز وبلاد الشام، غير أن خوف الأوربيين والعثمانيين من قيام دولة عربية كبرى دفعهما إلى إحباط هذه المحاولة.

وكان لنهضة مصر تأثير مباشر على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام.

وقد اتخذ عدد من المفكرين العرب نساء ورجالا من بلاد مصر مقراً لنشاطهم الفكري والأدبي والسياسي، وإصدار كتبهم ومجلاتهم التي كانت تصل إلى جميع أنحاء الوطن العربي وحتى إلى بعض الدول الأوربية، ولهذا فإن لمصر وللقاهرة تحديداً فضلاً كبيراً في النهضة العربية الحديثة. فقد أنجبت واحتضنت عدداً من النهضويين رجالاً ونساء منهم على سبيل المثال لا الحصر: عبد الرحمن الكواكبي، زينب فواز، لبيبة هاشم، مي زيادة، هند نوفل، فرح أنطون، وغيرهم وغيرهم.

أما منطلقات المشروع الأساسي، كما وردت على ألسنة رجال النهضة بمختلف مشاربهم فهي:

(*) - القضاء على الأمية والجهل ونشر المعارف العلمية.

(*)- الأخذ بسياسة التصنيع والتكنولوجيا الغربية والعمل على اللحاق بها.

(*) - اقتباس كل ما ينفع عن المدنية الغربية الحديثة.

(*) - محاربة الجمود، وتنقية الدين من البدع والقشور.

(*) - الدعوة إلى العقلانية، والتأكيد على مبدأ السببية، واتباع العقل في جميع الأحوال.

(*) مقارعة الاستبداد، بأشكاله المختلفة.

(*)- الدعوة إلى الديمقراطية والشورى.

(*) - السعي إلى قيام الدولة الوطنية، التي تنظمها وتسيرها القوانين.

(*) - المطالبة بحقوق الإنسان، والمساواة بين جميع المواطنين، فهم حسب تعبير خالد محمد خالد مواطنون لا رعايا.

(*) - محاربة العشائرية والقبلية والعائلية والطائفية والمذهبية والمناطقية، وكل ما يؤدي إلى تفريق الأمة وتقسيم الوطن.

(*) - الدعوة إلى القومية العربية.

(*) - العلمانية، التي كانت شعار أحد جناحي النهضة.

(*) - تحرير المرأة.

كان الرأي السائد في البدء يحصر أهداف النهضة ويحددها بالجوانب الأدبية والعلمية. ولكن النهضة العربية في مسارها الطويل، وتحديداً في مرحلتها الأولى من منتصف القرن التاسع عشر إلى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، لم تقتصر أهدافها على الجوانب العلمية والأدبية فحسب بل تعدتها إلى أهداف كثيرة، ذات مضامين اجتماعية وفكرية وسياسية.

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية
في بلاد الشام

إن استبداد السلطة العثمانية في بلاد الشام التي كانت ترزح أيضاً تحت نير الإقطاع، كان وراء تفشي الأمية فيها تفشياً واسعاً، بسبب انعدام المدارس وغياب الثقافة، كما كان الفقر والتخلف والعزلة الإقليمية والطائفية هي السمة العامة للمجتمع، ولم تطل تأثيرات النهضة الأوربية سوى أوساط معينة فقط، و بعض المدن الرئيسة.

كانت الأيديولوجية الدينية الصوفية حتى منتصف القرن التاسع عشر هي السائدة في المشرق العربي، وكان لكبار المتصوفة تأثير واضح في أقطار هذا المشرق. ومع أن مسيرات الطرق الصوفية اصطدمت أحياناً مع الطبقة الحاكمة العثمانية، إلا أن هذه الطرق لم تؤد، في القرن التاسع عشر، دوراً ثورياً، بل وقفت في مواجهة مكشوفة مع حركة النهضة العربية والتنوير الإسلامي لدى ظهورها.

وفي ظل هذه الأوضاع، كان قدوم الجيش المصري بقيادة إبراهيم بن محمد علي، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وطرده العثمانيين من بلاد الشام من أهم الأحداث تأثيراً على هذه البلاد. فقد أعيد تشكيل التحالفات السياسية

وقدمت البعثات الأوربية إلى بلاد الشام، وافتتحت الجامعات في العواصم الرئيسة مثل جامعة القديس يوسف والجامعة الأميركية في بيروت بالإضافة إلى المعاهد التي كانت تتبنى مناهج التعليم الحديثة. كما تم إدخال المطابع وإصدار الصحف، والتأكيد على حرية المعتقد واحترام الأديان، وتجديد الثقافة العربية وتسهيل دخول التيارات الثقافية الأوربية بما تحمله من قيم ومفاهيم جديدة، والتأثر بالنهضة الأوربية والدعوة إلى تمثلها. هذه العوامل كلها ساهمت في دعم حركة النهضة العربية، وبعث الوعي الوطني والقومي بمواجهة الأفكار التقليدية التي كانت متمثلة بالمجتمع العشائري والقبلي والطائفي. وبدأت تنتشر مفاهيم حول قيام الدولة الحديثة. وقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون نشاطات هامة فكرية تحررية نشرها رواد عصر النهضة الأوائل[١].

(١) - الباحث والمؤرخ د. عبد الله حنا - النهضة والاستبداد.

الوضع الثقافي والاجتماعي في جبل عامل

إن التاريخ السياسي لجبل عامل، هو التاريخ السياسي للبنان بأكمله، وهو مشابه لتاريخ بلاد الشام كلها آنذاك. إذ كانت السياسة الإقطاعية تعتمد على تجزئة البلاد، وتركها ميداناً للنزاع والصراع بين حكام الإقطاعات المتجاورة، وباباً للتفريق بين ملتمسي الإمارة والحكم من كل مقاطعة. مما جعل الحروب المحلية والمؤامرات حتى بين أفراد العائلة الواحدة، سمة مميزة لتلك المرحلة.

أما التاريخ الخاص والداخلي لجبل عامل، فهو تاريخ القرى والحواضر، وتاريخ البارزين في هذه المنطقة، كما كان عهده في النظام الإقطاعي.

كانت السلطة عبارة عن مشيخات تابعة لحكومة مركزية مستبدة، هي كل شيء في التاريخ والسياسة. فلم يكن يحسب المؤرخون حساباً لجبل عامل، ليكون له تاريخ مستقل مفصل.

وكانت الدولة المركزية تطرح المقاطعات الريفية التابعة للولاية للمزايدة بين الراغبين فيها من أعيان البلاد وأغنيائها، مقابل مبالغ محددة يدفعها الراغب في الالتزام.

كان الملتزم في مقابل ذلك، يحل محل الحكومة في السيادة والإمارة على إدارة الالتزام. وكان حر التصرف في جباية ما يشاء جبايته من الأهالي، بدلاً من

قيمة الالتزام التي يدفعها كل عام للدولة . وكان الأهالي الذين يعيشون على أرض الالتزام أذل من العبيد ، فربما استطاع العبد أن يفر من مولاه إذا أرهقه ، ولكن الفلاح ما كان يستطيع أن يفر من الملتزم إلى بلدة أخرى ويترك وطنه وعياله لأن الملتزم إذا علم بمكانه أحضره قهراً وزاده إذلالاً ومقتاً .

وفي إطار هذه العادات والتقاليد ، كان يحكم جبل عامل في جل العهود العثمانية الأخيرة أسر إقطاعية كل منها يستقل بحكم مقاطعة أو عدة مقاطعات يلتزمها ويجبي ضرائبها ، ويدير أموالها ويستثمر أراضيها كيفما شاء ، على أن يدفع لقاء ذلك كل ما عليه من المال سنوياً إلى خزينة السلطة العثمانية بواسطة والي الأيالة ، أو من يقوم مقامه ، على أن يلتزم بتأمين الطرق وحفظ الأمن داخل حدود مقاطعته وأن يلبي برجاله وفرسان مقاطعته دعوة والي الأيالة عند الحروب الأهلية والدولية ، ويشترك في أي معركة يوجه إليها .

وقد تميزت الحركة الفكرية في جبل عامل في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بثلاث خصائص هي :

١ - تأثر الحركة الفكرية بالعقيدة الدينية ، والقائمون عليها جماعات من رجال الدين ، وضعوا لها بثقافتهم ومعرفتهم حدودها . والمدارس المنتشرة في ربوع الجبل ، إنما كانت في البداية منازل للتدريس الديني والتثقيف الفقهي ، الذي كان الركيزة الأولى في ثقافة الطلاب ، وما عداه من علوم يصيبه الدرجة الثانية من الاهتمام .

٢ - تأثر الحركة الفكرية بالوضع السياسي والحالة الاجتماعية ، من استعداد دائم للحروب ، وكثرة الأحداث والوقائع . وأثر الزعماء السياسيين ، بالتفاف الأدباء والعلماء حولهم ، مما أدى إلى وجود مصنفات دونت الوقائع والأحداث ، ونشوء أدب سياسي .

٣ - تبدو هذه الحركة متسعة شاملة، نزلت إلى صفوف العامة، ولم تعش فقط في رحاب علماء (الطبقة العليا) من الشعب. وشارك الجمهور في أدبه العامي وأزجاله الشعبية.

لقد تسرب النشاط الأدبي إلى صفوف النساء، فشاركت المرأة في تذوق الأدب وإنتاجه، لكن هذه المشاركة جاءت متأخرة عن نشاط الرجل. وباستجلائنا لمظاهر هذه الحركة، وإمعاننا في تفصيلها، يتبين أنها كانت أرستقراطية الطابع، لم يعن بها سوى نساء الحكم وبناته ومن له صلة بهم. وممن برز في هذا المجال فاطمة الخليل زوجة علي الأسعد، الذي كان شاعراً بالإضافة إلى كونه حاكم القلعة

ثم أخذ بهذا النشاط من له صلة بآل الأسعد كزينب فواز، التي اهتمت بالمطالعة وقراءة الشعر.

وقد برز خلال هذا العهد في بلدة بنت جبيل امرأة أديبة وشاعرة، تدعى (منى)، وكان لها في الشعر خبرة حسنة، كانت تجالس الأدباء وتساجل الشعراء من وراء حجابها، وكانت معروفة بسلامة ذوقها وحسن اختيارها.

وجاء هذا العهد مزدهراً بحياته الفكرية والأدبية، وزينب فواز مثال لنشاط المرأة العاملية في الحياة الفكرية.

وهكذا فقد أنبتت الأرض العاملية، في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، العديد من العلماء والمفكرين، وأخرجت قوافل الشعراء والكتاب، واحتضنت حلقات الباحثين والدارسين.

الباب الثاني

أوضاع المرأة في عصر النهضة

الفصل الأول: المرأة في عصر النهضة.

الفصل الثاني: أوضاع المرأة في بلاد الشام.

الفصل الثالث: الصحافة النسائية العربية في عصر النهضة.

المرأة في عصر النهضة

ساعد عصر النهضة في أن تستعيد الثقافة العربية موقفها الإنساني من المرأة، بعد قرون من الاضطهاد والاستعباد منذ عصر المماليك الذي بدأ عام ١٢٥٠م، والعصر العثماني الذي تبعه منذ عام ١٥١٦م بعد أن لعبت الثقافة العربية دوراً في رفع شأن المرأة، في صدر الإسلام، وفي الأندلس، وحتى العصر العباسي، قبل عصريَ الإنحطاط المذكورين.

ولم تكن النظرة الدونية والمتخلفة إلى المرأة إلا نتيجة أفكار ومفاهيم أتى بها المماليك والعثمانيون، بعيداً عن روح الثقافة العربية الأصيلة، وذلك للحؤول دون تعليم المرأة وعملها بهدف الإضرار بالمجتمع العربي عن طريق شل نصفه بضربة واحدة.

كان المثقفون العرب في بداية عصر النهضة طليعة المناضلين السياسيين والاجتماعيين، إذ كانوا قادة الفكر والتنوير ودعاة الاستقلال السياسي للنهوض بالأمة العربية وتحريرها. كما كانوا أنفسهم الداعين إلى تحرير المرأة كجزء لا يتجزأ من تحرير المجتمع كله من الجهل والقهر والتخلف والعبودية.

وكانوا يرون تلازماً بين انحطاط المرأة وانحطاط المجتمع وتخلفه. وإن تاريخ النهضة حافل بأسماء الرجال المناضلين من أجل حرية الوطن وتقدمه، ومن أجل تحرير المرأة ومساواتها بالرجل مثل رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده وقاسم أمين وغيرهم وغيرهم. أولئك الذين ربطوا بين أوضاع المرأة المتردية بتردي أوضاع

المجتمع والظلم الذي كان يقع عليها وعلى المجتمع معاً من استمرار الاستبداد الشرقي وحكوماته الاستبدادية. وقد تمكن هؤلاء الرواد من نقل قضية المرأة من الشأن الخاص إلى الشأن العام ووضعها في إطارها الصحيح كقضية سياسية، اقتصادية، اجتماعية، تتعلق بحركة تطور المجتمع، وجملة ظروفه القائمة. فهي تتقدّم إن تقدّم المجتمع، وتنحطّ إن انحط.

كانت الإشكالية عند رواد عصر النهضة الأوائل واحدة: أولوية التقدّم، ولا تقدّم في نظرهم بدون إصلاح أوضاع المرأة.

إن دعوة قاسم أمين التي أطلقها لتحرير المرأة والتي مرّ عليها، لتاريخه، مائة عام كان يقصد بها تحرير عقلها من الغشاوات التي تكبله وتحد من انطلاقها ومشاركتها في تطوير المجتمع.

وإنه لمن المؤسف أن هذه الدعوة لا تزال قائمة بعد مائة عام، أي أن وضع المرأة الفكري لم يطرأ عليه سوى تغييرات طفيفة أصابت النخبة، واقتصر التغيير على الشكل.

إن قوانين عديدة تتعلق بالمرأة لابد من مراجعتها، وتشريعات جديدة لابد من إعادة صياغتها، وعقبات اجتماعية وسياسية صعبة ومعقدة لابد من إزالتها، وتحديات فكرية أصعب لابد من مواجهتها.

لقد كان مشروع قاسم أمين خلاصة متقدمة، وتتويجاً فكرياً صاعداً لكل ما سبقه من جهود إصلاحية تواصلت طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، جهود أسهم فيها، إلى جانب الرواد الأوائل، أمثال: محمد عبده ورفاعة الطهطاوي في مصر، وبطرس البستاني وفارس الشدياق في لبنان، وغيرهم، رائدات من طراز زينب فواز وعائشة التيمورية ولبيبة هاشم وعفيفة كرم وملك حفني ناصيف وهند نوفل وغادة عمشيت، وغيرهن وغيرهن.

فقد صدرت في عام ١٨٩٩م، وربما قبل هذا التاريخ المدون رواية زينب فواز «حسن العواقب أو غادة الزهراء» في الوقت الذي صدر فيه كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة». وقد أثار صدوره، ولما يزل، ضجة إعلامية كبيرة وحملة نقدية واسعة، وجاء آخر فصولها في مؤتمر القاهرة الذي انعقد أواخر السنة الفائتة بمناسبة مرور مائة عام على صدور هذا الكتاب.

من الطبيعي والهام أن يجري اهتمام بالرواد الأوائل، والمؤتمر الذي عقد في القاهرة مؤخراً، كان هاماً ومفيداً لتقييم مشروع قاسم أمين في علاقته بعصره، ورؤيته من منظور عصرنا نحن، وترتيب أولويات الزمن الذي نعيشبه، لا لكي ننتهي إلى ما انتهى إليه منذ قرن إنما لكي نبدأ من حيث انتهى إليه هو، ومن حيث انتهت إليه حركة تحرر المرأة بعده.

لم يكن رواد عصر النهضة كما رأينا الوحيدين الذين عنوا بقضايا النهضة وبقضية المرأة تحديداً في عصرهم، بل شاركتهم في هذه المهمة النهضوية رائدات نهضويات بارزات لعبن دوراً تنويرياً ونهضوياً هاماً.

كان طرح بعضهن متقدماً وأكثر عمقاً عما طرحه رواد عصر النهضة من الرجال. وهذا لا يقلل أبداً من أهمية ما طرحه الرواد الأوائل، الذي جاء تمهيداً ودعماً لطروحات الرائدات. ولكن لماذا توارت أسماء هؤلاء الرائدات وغابت آثارهن ولم ينلن حقهن من الذكر في تاريخ النضال المدون الذي تطلع عليه الأجيال؟.

«ولماذا لم يعط مؤرخو عصر النهضة في بلاد الشام ومصر وغيرها الرائدات الأوائل ما يستحققنه من مكانة، ولم يقوّم دورهن الأدبي والفكري والاجتماعي تقويماً منهجياً موضوعياً من شأنه أن يرفع الغبن اللاحق بهن ويفسح المجال أمام الأجيال اللاحقة للتعرف على وجوه نسائية ثقافية نهضوية لا يقل دورهن قيمة وتأثيراً عن دور غيرهن من الوجوه (الذكورية) التي امتلأت بها الكتب والصفحات الكثيرة ولم تزل؟»[1]. وإن ما وصل من أدب وفكر المرأة لا يمثل إلا النزر القليل مما

(١) - د. بثينة شعبان.

كتبته. رغم أن المرأة العربية سارت جنبا إلى جنب مع الرجل في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على طريق طلب العلم والاشتراك في العمل أداة للنهضة العربية الحديثة. وانخرطت في الميدان العملي والثقافي محاولة من خلال عملها وأدبها بث الوعي الوطني والقومي والاجتماعي.

وإن الإنتاج الأدبي والفكري لم يكن وقفاً على جهد الرجل ونبوغه، بل كان، بجانب هام منه، حصيلة لجهد المرأة ونبوغها برغم كونها معرضة أكثر من الرجل لصنوف القهر والحرمان.

قد يكون ذلك عائداً إلى سببين أثنين:

أولاً: إن التاريخ دوّنه الرجال أنفسهم، فكتبوا ما يروق لهم أو ما اعتبروه على درجة من الأهمية.

ثانياً: لم ينظر المجتمع في حينه بجدية وموضوعية إلى ما تكتبه المرأة فحسب، بل وإلى المرأة نفسها.

وغياب ذكر المرأة لا يعني أنها لم تلعب دوراً مؤثراً وفاعلاً في النضالات الوطنية التحررية والاجتماعية في تلك المرحلة.

تقول د. هدى الصده في مجلة «هاجر» المصرية: «لماذا سقط سهواً أو عمداً من التاريخ الحديث ذكر رائدات بارزات مدافعات عن حقوق المرأة؟ مناضلات حملن لواء العلم والمعرفة في عصر كان المجتمع أحوج ما يكون فيه إليهن؟».

وتضيف: «أليست الذاكرة الانتقائية لبعض المؤرخين والمثقفين من الرجال خاصة، هي المسؤولة عن التمييز بين الجنسين إذا ما اختلفت بالرأي هذه الرائدة أو تلك عن معاصريها من الرجال، أو إذا قدمت فكراً مغايراً من وجهة نظر أخرى لا تحاكي وجهة النظر السائدة أو المعبرة عن مصلحة مجتمع (ذكوري)، وكما حدث من قبل، ويحدث دائماً، يتم استبعاد هذا الصوت الآخر أو المختلف، ويفقد التاريخ آثاراً مهمة على طريق التقدم. هل هناك أمل في تدارك هذا الخطأ المروع؟».

أوضاع المرأة في بلاد الشام في تلك المرحلة

ترجع كثرة عدد المهتمين بقضية المرأة إلى أنها كانت تمثل مشكلة تعاني منها المجتمعات الشرقية الإسلامية، وتلح على المفكرين في البحث عن حلول ناجعة ومفيدة، فقد كانت المرأة في تلك الفترة تعاني الجهل والتخلف الذي كان يقف عائقاً بوجه كل أنواع المعرفة بالإضافة إلى تقاليد المجتمع القاسية التي تركتها سجينة البيت بعيدة عن المشاركة في الحياة العامة في مجتمع تسوده علاقات إقطاعية قائمة على التحكم والاستبداد. بالإضافة إلى الجهل المخيم على الناس مما انعكس بشكل سلبي على وضع المرأة وتعرضت لانحطاط شديد زاد عن انحطاط المجتمع، وفقدت أية مساهمة جدية في حركة المجتمع وحياته ومستقبل الوطن ومصيره.

ورغم هذه الأوضاع فقد برزت نشاطات متنوعة هامة للمرأة، ثقافية وأدبية واجتماعية وسياسية، تزايدت واتسعت حتى شملت المئات من النساء بعد التغييرات التي حصلت في المنطقة، ووقف العديد منهن في الواقع مواقف جريئة ومتميزة، تستحق أن تسجل في التاريخ الإنساني. وكانت هذه المواقف رد فعل طبيعي على الظروف الموضوعية التي كانت تعيشها المرأة، وبالذات في المجتمعات العربية. فقد شاركت الرجل في تحمل تبعات الحروب والمعارك، والتخلف والاستغلال. بالإضافة إلى التبعية والتمييز الجنسي بأشكاله المختلفة. وقد تعثرت أوضاع النساء بتعثر المشروع النهضوي العربي في نقل المجتمعات العربية من مرحلة الإقطاعية إلى مرحلة الرأسمالية والدخول في الثورة الصناعية وما يرافق ذلك من ازدهار فكري وثقافي، وكان وراء هذا التعثر أسباب كثيرة نذكر منها:

١ - الضغط الاستعماري وممارسة الاستبداد بكل أشكاله ونهب ثروات هذه المجتمعات، وتقييد الحريات فيها من قبل الحكام المماليك والعثمانيين.

٢ - تحجر النظام الإقطاعي وخلق واقع متخلف بسبب الانقسامات العشائرية والطائفية، وعدم قيام قوى اجتماعية تحررية تنقل المجتمع العربي من عصر الظلام إلى عصر الثورة والمعرفة.

في هذه المرحلة لم يكن في البلاد أحزاب سياسية ونقابات عمالية ومهنية، أو نشاطات اجتماعية بارزة إلا أن الكثيرين من مفكري عصر النهضة اجتهدوا وقدموا أراء جريئة متنورة فيما يتعلق بتطور المجتمعات العربية بشكل عام ووضع المرأة بشكل خاص.

إن الحكم العثماني المستبد آنذاك لم يسمح لمفكري النهضة في المجتمعات العربية من ممارسة نشاطهم وطرح أفكارهم بحرية رغم الجرأة التي تميزوا بها والصراحة التي اتصفت بها إفكارهم وجعلتهم يسبقون عصرهم. فقد حورب هؤلاء بشدة وتعرضوا للإرهاب والقمع والنفي والاغتيال. ورغم كل الضغوطات فقد تم الكثير من النشاطات والتحركات وعقد الحلقات التي ساعدت على تكوين قادة الحركة الوطنية العربية.

في تلك المرحلة اشتد الصراع بين القديم المهتم بصغائر الأموروالمعتقدات والخرافات، وبين الجديد الساعي إلى إحياء المضيء من التراث العربي والاقتباس من الحضارة البورجوازية المناهضة للإقطاع في أوروبا، ومع بداية تكون البورجوازية كطبقة في المشرق العربي أخذت الأفكار البورجوازية بالانتشار المحدود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهذه الأفكار البورجوازية المتشابكة والممزوجة مع الجوانب الثورية في التراث العربي الإسلامي عرفت بأفكار النهضة العربية وحركة التجديد الإسلامي.

وقد تشعبت إلى تيارين:

١ - تيار ليبرالي علماني متأثر بالثقافة الغربية وبمبادىء الثورة الفرنسية وشعاراتها .

٢ - تيار التجديد الإسلامي .

ولقد حمل كلا التيارين النهضويين الليبرالي العلماني والديني المستنير لواء مناهضة الاستبداد والجهل والظلامية .

«ورغم التأثير الذي أحدثه الرواد الأوائل فإن المتعمق في دراسة عصر النهضة العربية يرى عدم تفهم الجمهور التام لآراء الرواد، بمعنى أن أفكار النهضة والتنوير الديني لم تدخل أعماق العامة وبقيت واحات محاصرة ببحار من التخلف والجهل والخرافات والغيبيات». من «مقدمة رسالة التوحيد للشيخ رشيد رضا» .

إن المشروع النهضوي لدولة محمد علي الذي سعى إلى إقامة دولة حديثة، ونتائج التدخل الأوربي في العالم العربي في القرن التاسع عشر، وتأثير ذلك على الكتّاب والمفكرين العرب واعتمادهم على منهج علمي تاريخي اجتماعي في البحث عن الأسباب الحقيقية لتخلف المجتمع العربي، دفع بعضهم انطلاقاً من هذه الرؤية الشاملة إلى طرح قضية النهوض بالمرأة والعمل على تحريرها والمطالبة بإعطائها حقوقها في الحرية والعلم والعمل .

ويلاحظ أن هؤلاء المتنورين كانوا من أنصار التمثل بأوروبا والاستفادة من نهضتها الثقافية والحضارية، فنادوا بتحقيق إصلاحات في المجتمعات العربية انطلاقاً من مبادىء العدالة والمساواة والحرية الشخصية والمدنية، ونصرة العقل وفصل الدين عن الدولة، وفصل السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية بعضها عن البعض الآخر، وضمن هذا السياق طالبوا بتحسين وضع المرأة وتعليمها وتربيتها وتنويرها .

فكان ذلك أقصى ما طالب به المفكرون الليبراليون في القرن التاسع عشر أي أنهم رأوا في مشكلة المرأة جزءاً من قضية في مسار نشاطهم العام وهمهم الوطني .

يقول الباحث الأستاذ حسين العودات في كتابه «المرأة العربية في الدين والمجتمع» ص ١١٩ :

«إن المفكرين الليبراليين المتنورين عموماً لم يتعرضوا لقضايا المرأة الأساسية، كالمشاركة في حياة المجتمع ونشاطاته أو المساواة، أو الولاية وتعدد الزوجات والطلاق، أو إلى رفع الظلامات عن المرأة، لأن مرحلة التطور التي كانت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة ومنظومة القيم التي ترسم توجه المجتمع، لم تكن تسمح بأكثر من المطالبة بتعليم المرأة وتربيتها وعلى أية حال كانوا أوائل المتنورين الذين أطلقوا شرارة تحرير المرأة».

وإنه من الغبن الاستخفاف بهذه المطالب في ظروف ذلك الوقت، إذا كان الجميع رجالاً ونساءً محرومين من التعليم، وكانت المرأة في المدن منزوية في بيتها لا تستطيع مغادرته إلا في حالات نادرة استثنائية. ففي مجتمع الاستبداد الشرقي والحكم الإقطاعي، والتخلف الاجتماعي والثقافي، وبيوت الحريم، والانحطاط الفكري واستلاب المرأة كلياً إنساناً وحقوقاً، كانت مثل هذه الأفكار أفكاراً تنويرية حقاً وربما ثورية وخطوة إلى الأمام دون شك، مهدت الطريق للمتنورين في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لكي يخطوا خطوات كبيرة في مجال المطالبة بحقوق المرأة وتحريرها.

إن طلب المساواة التامة بين المرأة والرجل في خطاب المتنورين بمفاهيمنا في الوقت الحاضر كان أمراً متعذراً لعدة أسباب:

أولها: أن مرجعية هؤلاء المتنورين هي القرآن والسنة وهما لم يقررا بصراحة ووضوح المساواة بين الرجل والمرأة ولم يعطياها كامل حقوقها الطبيعية.

ثانيها: أن منظومة القيم السائدة في عصرهم لم تكن لتفتح أمامهم إمكان رؤية المساواة المطلقة، كما لم تسمح لهم ربما بأن يطالبوا بأكثر مما طالبوا به. فكيف

يمكن المطالبة بحقوق كاملة للمرأة في مجتمع ينكر هذه الحقوق إنكارا كاملا، وهؤلاء الرواد كانوا يعيشون في ظروف خانقة يحاصرهم فيها الحكام والباشوات والإقطاعيون في مجتمعات تخضع كلياً للعادات والتقاليد البالية.

ثالثها: عدم وجود تجمعات أو تنظيمات أو حركات سياسية تدعم مثل هذا الطرح.

وعلى أي حال فإن آراء المتنورين هؤلاء كان لها أثر كبير جداً في مسيرة تحرر المرأة. وهزّت قناعات المجتمع، وفجرت آراء جديدة وشجعت شرائح اجتماعية وسياسية على جعل قضية المرأة من أولوياتها، وهيأت الأجواء لقيام تنظيمات نسائية في مطلع القرن العشرين.

كما يلاحظ أبو علي ياسين في كتابه «حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة»:

«إن كتَّاب عصر النهضة بحكم إنتماءاتهم الطبقية وأوضاعهم المعيشية الحسنة -يتحدثون بصورة شاملة عن المرأة في بلادهم ويقصدون تحديداً نساء المدن مع أن أكثر النساء في زمنهم ريفيات. كما أنهم ضمنياً يخصون بالحديث بنات الأسر الميسورة من الطبقات الوسطى والغنية ويهملون بنات الطبقات الدنيا أو الفقيرة، فقليل من هؤلاء الكتّاب، يذكر المرأة الفلاحة أو البدوية، وإن ذكرها فبصورة عرضية، مع العلم أن هذه المرأة لم تكن قط محتجبة، بل كانت تساعد أهلها أو زوجها في الزراعة وتربية الماشية. وكذا هو الأمر تقريباً بالنسبة لنساء الطبقات الدنيا في المدن».

الصحافة النسائية العربية
في عصر النهضة

ازدهرت الصحافة النسائية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد قامت بعض الكاتبات من سورية ولبنان ومصر والعراق بإصدار مجلات وصحف خاصة بالمرأة في القاهرة والإسكندرية وبيروت ودمشق وبغداد، ساهمت في نشر الوعي الوطني التحرري والثقافي والسياسي بالإضافة إلى دورها في مقاربة الوضع الاجتماعي للمرأة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من وضع المجتمع العربي.

كما ساهم العديد من المثقفات في حقل الكتابة، في الصحافة العامة التي تصدر آنذاك. وقد تضمنت هذه الصحف والمجلات الشعر والنثر والنقد والمقالة التي عالجت موضوعات مختلفة، خاصة القضايا المتعلقة بالمرأة وكتاباتها. وبلغ عدد المجلات والصحف النسائية أكثر من ٢٥ خمس وعشرين مجلة وصحيفة حتى العقد الأول من القرن العشرين.

وقد لعبت هذه المجلات والصحف دوراً تنويرياً وتثقيفياً ونهضوياً في الحياة العربية والقومية بشكل عام. وفي تقدم أوضاع المرأة العربية بشكل خاص.

عبرت معظم الكتابات النسائية بشكل أو بآخر عن:

١ - التلازم الوثيق بين النضال الوطني التحرري والنضال من أجل تحرير المرأة.

٢ - التوجه القومي المعادي للاحتلال العثماني، وللسيطرة الاستعمارية للانتدابين الفرنسي والبريطاني.

(الفترة التي شهدت يقظة الوعي السياسي أولاً ضد الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم ضد الانتداب الغربي).

كانت أول مجلة نسائية تصدر في الوطن العربي هي مجلة «الفتاة» لصاحبتها هند نوفل التي ولدت في بيروت، ثم رحلت مع أهلها إلى الإسكندرية حيث أصدرت مجلتها عام ١٨٩٢م. وقد نشر في مجلة «الفتاة» عدد من الكتاب والكاتبات في طليعتهم الكاتبة اللبنانية زينب فواز. وقد استمرت هذه المجلة في الصدور حتى شباط عام ١٨٩٤م.

وصدرت مجلة «الأنيس» في كانون الثاني عام ١٨٩٨م في الإسكندرية لصاحبتها اللبنانية ألكسندرا الخوري أفيرينوه، بالإضافة إلى مجلة «اللوتس» بالفرنسية، واتخذت من مجلتيها منبراً للدفاع عن المرأة العربية وحقوقها.

ومن المجلات النسائية المرموقة التي صدرت في بيروت «المرأة الجديدة» لصاحبتها جوليا طعمة دمشقية، وقد عالجت في الافتتاحية الأولى لهذه المجلة مشاكل المرأة اللبنانية. وقد استمرت بالصدور سبع سنوات.

ثم صدرت تباعاً المجلات التالية:

«المرأة» لأنيسة عطا الله، صدرت في مصر عام ١٩٠١م.

و«السعادة» لروجينا عواد، في مصر عام ١٩٠٢م.

و«شجرة الدر» لسعدية عبد الدين، في الإسكندرية عام ١٩٠١م.

و«الحذر» لعفيفة صعب، في لبنان عام ١٩١٢م.

و«فتاة لبنان» لسليمة أبو راشد، في لبنان عام ١٩١٤م.

و«فتاة النيل» لسارة المحيا، في القاهرة عام ١٩١٣م.

مينرفا

مجلة ادب وفن واجتماع

صاحبتها

ماري يني

العدد الثامن — السنة الأولى

١٥ تشرين الثاني — سنة ١٩٢٣

الاشتراك: في لبنان وسوريا ١٢٥ غرشاً سورياً
وفي الخارج ما يعادل نصف ليرة مصرية

المراسلات: باسم صاحبة المجلة — بيروت

المطبعة العلمية — يوسف صادر — بيروت

ومجلة «منيرفا» الأسبوعية لصاحبتها ماري ينّي من لبنان، وقد صدرت في بيروت في ٢٤ أيلول عام ١٩١٦م، أنشأتها بخط اليد في عهدها الأول مراعاة للأحوال المادية أثناء الحرب العالمية الأولى، وكانت أختها ألكسندرا تكتب المجلة بخطها الجميل. كان ينشر في مجلة «منيرفا» أدباء من لبنان ومصر والبلدان العربية، أمثال: مصطفى الرافعي وأمين الريحاني وعمر فاخوري وغيرهم. وقد ترجم الأديب عمر فاخوري كتاباً يتضمن آراء أناتول فرانس أهدته إدارة مجلة «منيرفا» إلى قرائها. وباعتراف الأديب جبران خليل جبران، فإن «منيرفا» كانت أحسن مجلة نسائية في الشرق العربي.

ومجلة «المرأة السورية» لصاحبتها عفيفة كرم ،عام ١٩١١م.

وبالإضافة إلى إصدار المجلات ساهم عدد كبير من النساء في الكتابة للصحافة العربية منهن: وردة اليازجي ولبيبة هاشم ولبيبة مخايل وهنا كوراني وماريانا مراش أول امرأة سورية تكتب في الصحافة، ولدت في حلب واهتمت بكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية في مجلة «الجنان» وجريدة «لسان الحال»، وغيرها من الصحف والمجلات السورية.

ومجلة «العروس» سياسية أدبية اجتماعية، أول مجلة نسائية سورية أسستها ماري عجمي عام ١٩١٠م في دمشق، واستمرت في إصدارها حتى نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م. ثم عاودت إصدارها عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عام ١٩١٨م واستمرت حتى قيام الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م. وتناولت مجلة «العروس» العديد من القضايا التي تهم المرأة، وكانت منبراً للدفاع عن حقوقها.

وقد ربطت ماري عجمي حياتها ومصيرها بأمرين أثنين مترابطين فيما بينهما: الصحافة والسياسة. وعرفت الكتابة في سن مبكرة جداً، وكان عندها طموحات كبيرة، وقد تحقق حلمها الأكبر بإصدار مجلة «العروس».

كانت ماري من أولى الصحافيات في البلاد العربية، وقد توقفت مجلتها في مطلع الحرب العالمية الأولى، فأخذت توزع أحاديثها ومقالاتها على المجلات والصحف العربية التي كانت تصدر آنذاك في الوطن والمهجر، مشاركة في نشر الوعي السياسي والثقافة الاجتماعية.

لم تكتف ماري عجمي بأن تكون «العروس» منبراً للدفاع عن حقوق المرأة المسلوبة فقط، بل كانت أيضاً، منبراً لدعم الحركة المناهضة للسيطرة العثمانية التي كانت تنكل بالأحرار الذين علق عددٌ منهم في دمشق وبيروت، على أعواد المشانق في السادس من أيار عام ١٩١٦م. وكانت ترى أن هناك ترابطاً وثيقاً ما بين حرية وطنها وحرية شعبها نساءً ورجالاً.

كانت المجلة تطبع في حمص، في مطبعة قسطنطين يني أخي ماري يني الكاتبة الرائدة صاحبة مجلة «مينرفا». وقد تضمنت افتتاحية العدد الأول من «العروس» مايلي: «إليك العروس سيدتي فرحبي بها غير مأمورة، ليذهب عنها شيء من (حيائها) فتسر إليك بمكنونات قلبها، وشعائر موقفها، عروس لا عريس لها سوى الشعب الجاثي على أقدام (حريته) يطلب بركة الوطنية تحت سماء المعلم والعلم». فبالإضافة إلى المقالات والدراسات الأدبية التي لفتت إليها الأنظار حين صدورها، عرف المثقفون دراستين أدبيتين قيِّمتين عن الأديبتين باحثة البادية ومي زيادة.

لم تلهث ماري وراء جهابذة الأقلام كما يقولون، بل استقطبت المواهب الناشئة، المندفعة للكلمة الجريئة والرأي الحق الناطق بلسان حال الظروف العصيبة من اضطهاد وتنكيل مارسهما الاحتلال التركي بأبشع الصور قمعاً لأبناء الوطن.

كانت ماري تلح على الأدباء الشباب أن ينتحلوا أسماءً لمقالاتهم، حتى لا يتعرضوا لخطر الاعتقال.

كانت «العروس» تعنى بشكل خاص بشؤون المرأة وتعطيها جلّ اهتمامها، إلى جانب عنايتها بالسياسة والتاريخ والأدب وأعلام النساء. كما تضمنت بعض المقالات الفكاهية والنوادر الساخرة.

وقد نشرت «العروس»: «أن (كاهناً) كان يزوج عروسين، فقال مخاطباً العريس: «من واجب الزوج أن يحب زوجته ويكرمها ويدافع عنها، ومن واجبات الزوجة، أن تحب زوجها وتطيعه وتتبعه إلى حيث يذهب»، هنا اعترضت العروس قائلة: «هذا غير ممكن». فسألها الكاهن: «لماذا؟» فقالت: «لأن زوجي موزع بريد».



اتحاد الجمعيّات النسائية في دمشق
يكرّم
فقيدة الادب الرائدة الأولى
ماري عجمي

نشرت هذه المجموعة شقيقات الفقيدة في الجمهورية العربية السورية

الباب الثالث

زينب فواز

الفصل الأول : ١ – حياتها.

٢ – زينب في مصر.

٣ – زينب في سورية.

الفصل الثاني : أعمال زينب:

١ – مسرحية الهوى والوفاء.

٢ – الدر المنثور في طبقات ربات الخدور.

٣ – حسن العواقب أو غادة الزهراء.

٤ – الملك قوروش أو ملك الفرس.

٥ – الرسائل الزينبية.

٦ – كشف الإزار عن مخبئات الزار.

٧ – تعقيب على مقالة هنا كوراني.

حياة
زينب فواز

زينب بنت علي بن حسين فواز -أديبة لبنانية ابنة جبل عامل (جنوب لبنان) ١٨٤٦-١٩١٤م ، رائدة من أعلام النهضة العربية الحديثة، أديبة ومفكرة وناقدة وشاعرة، إضافة إلى اهتمامها بالقصة والمسرحية والتاريخ والتراجم.

يقرن اسمها عادة بأسماء الكبار الذين نبغوا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذين شكلوا المدماك الأول في بناء النهضة الفكرية.

عاصرت زينب فواز عدداً من رواد النهضة المتنورين الذين دافعوا وكتبوا عن تحرر الوطن وحقوق المرأة، أمثال: بطرس البستاني، فارس الشدياق، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، قاسم أمين وغيرهم.

وقد أشتهر هؤلاء في التاريخ ، على حين توارت أسماء مثل زينب فواز، ومثيلاتها: عائشة تيمور، لبيبة ماضي هاشم، عفيفة كرم، غادة عمشيت، فريدة عطايا، ملك حفني ناصف وغيرهن كثيرات من رائدات النهضة العربية اللواتي برز دورهن كداعيات لتحرير المرأة ومساهمات في بناء النهضة العربية، وولادة الرواية العربية الأولى.

والسؤال الآن: لماذا تم تجاهل الكتابات النسائية التحررية التي لعبت دوراً في تقدم المرأة والمجتمع ،والتي لا تقل أهمية عن كتابات الرواد في تلك المرحلة وما تمثله من تخلف وظلم وفقر وقهر، خاصة بالنسبة للمرأة؟.

كان من الصعب تعقب الآثار الأدبية والفكرية النهضوية للرائدة زينب فواز، حتى في سورية التي عاشت فيها سنوات، ومارست فيها بعض نشاطها الأدبي والفكري (المجالس الأدبية الأسبوعية)، وتركت في قلوب السوريين كل حب وتقدير وإعجاب، تجلى في إطلاق اسم «زينب فواز» على مدرسة ابتدائية رسمية واقعة في سوق الصوف -رقم ١٣- شارع مدحت باشا، بالقرب من شارع حي الأمين حيث كان مسكنها (وهذه المدرسة تحولت حالياً إلى مركز ثقافي دانمركي). غير أن الكثير من الباحثين والمفكرين السوريين المعاصرين يقولون: إنهم سمعوا بالاسم، ولكنهم لا يعرفون عن نتاج هذه الأديبة، إلا القليل.

ومن أجل رفع غبار النسيان عن آثار هذه الأديبة العربية الرائدة، والدفاع عن حقها في احتلال موقعها الجديرة به في قائمة المشاهير من أدباء عصر النهضة وعلمائه ومناضليه، لابد من التعريف بها وبنتاجها الأدبي والفكري الذي أمكن العثور على بعض منه بعد بحث جاد وطويل.

إن معظم ما كتبته طبع منذ ما يزيد عن مائة عام، وهو غير موجود كاملاً في أي مكتبة من المكتبات التي تعنى عادة بالتراث. ومن أهم مؤلفاتها:

١ - كتاب «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» -١٨٩٣م.

٢ - «الهوى والوفاء» مسرحية - عام١٨٩٣م.

٣ - «كشف الإزار عن مخبئات الزار» - مفقود.

٤ - «حسن العواقب أو غادة الزهراء» رواية - عام ١٨٩٩م.

٥ - كتاب «الرسائل الزينبية» - عام ١٩٠٤م.

٦ - «الملك قوروش أو ملك الفرس» رواية تاريخية - عام ١٩٠٥م.

٧ - ديوان من الشعر لم يعثر عليه، ولكنها أودعت كتبها بعض قصائده.

أما آثارها المخطوطة، فقد ذكرت بعض المراجع أنها:

١ - «مدارك الكمال في تراجم الرجال».

٢ - «الدر النضيد في مآثر الملك الحميد».

بالإضافة إلى المقالات والأبحاث العديدة في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في مصر وبلاد الشام.

وكان الفضل الكبير للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي وأمينه العام الباحث والأديب الأستاذ حبيب صادق، وللكاتبة الأديبة فوزية فواز التي تنتمي إلى عائلة زينب فواز نفسها، في جمع التراث الزينبي المتناثر المهمل.

فقد أعاد المجلس الثقافي للبنان الجنوبي نشر أثرين أدبيين للرائدة زينب فواز هما «حسن العواقب» و «الهوى والوفاء» عام ١٩٨٤م، بعد أن مضى على تاريخ نشرهما للمرة الأولى والأخيرة قرابة التسعين عاماً، وبعد أن فقدا من المكتبات العامة والخاصة على حد سواء منذ زمن بعيد.

وكما جاء في تقديم هذين الأثرين:

١ -إنهما حلقة أولى في سلسلة تراث زينب فواز الأدبي، وإن ما ورد في هذا التراث فكر أصيل جدير بالقراءة والدرس، علاوة على قيمته التاريخية لعصر النهضة العربية.

٢ - التأكيد على وفرة الإنتاج الأدبي في جبل عامل في زمن كان فيه أسيراً لسلطان القهر والحرمان. ثم إن هذا الإنتاج لم يكن وقفاً على جهد الرجل ونبوغه ليس غير، بل كان في جانب منه حصيلة لجهد المرأة ونبوغها.

يتساءل الباحث محمد يوسف مقلد -أديب وشاعر لبناني من تبنين بلدة زينب فواز -من أين جاءت هذه الفتاة بميلها المبكر النادر إلى الكتب؟.

إنه لم يأتِ عن طريق الوراثة، ولا عن طريق البيئة التي كانت الأمية فيها طابع الحياة العامة. فحتى أوائل القرن العشرين كان في جبل عامل قرى كثيرة تصل الأمية فيها إلى نسبة ١٠٠٪ مائة بالمائة. ولكن من الثابت أن الخلفية الثقافية

والاجتماعية والفكرية والإنسانية التي وجدت فيها زينب فواز موجودة أصلاً في البيئة العاملية. والنهضة الأدبية في جبل عامل قامت على هذا الأساس.

تقول السيدة فوزية فواز: (فزينب التي تحدثت عن ٤٥٦ أربعمئة وست وخمسين امرأة من الشرق والغرب في كتابها «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»، لم تذكر أي شيء عن نفسها وعن أسرتها وأنكرت ذاتها... ولعل السبب في ذلك تمشياً مع آداب عصرها فيما يعدونه فضيلة خلقية... وهي امرأة متمسكة بالأخلاق الكريمة التي تترفع عن الظهور. وقد تكون تعمدت السكوت عن نفسها لتترك لغيرها أن يتحدث عنها كما تحدثت عن بنات جنسها، ولكن أياً كان السبب فقد قصرت في حق نفسها وحرمت الباحثين من المصدر الأصيل للتعرف إليها). وبذلك تركت المجال واسعاً أمام التكهنات والروايات الغريبة التي تقرب أحياناً من الأساطير.

ومما يحز في النفس أن أحداً من كبار المؤرخين والكتّاب الذين صرفوا جلّ اهتماماتهم للتأريخ لحياة الأدباء والمفكرين في عهدها لم يولها من الاهتمام ما أولوه لمن هم دونها في المكانة الأدبية والفكرية.

يقول الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة «العرفان» (م ٨ ج ٦ آذار عام ١٩٢٣م): «من لم يسمع بذكر هذه النابغة العاملية في هذا القرن، سواء في سورية أو في مصر، أو في سائر البلدان العربية؟ فزينب لم تكن أبداً مجهولة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين. فمن يطلع على مقدمات كتبها وما كان يأتيها من تقريظ لهذه الكتب، يجد فيها دليلاً على شهرتها في الأوساط الأدبية والفكرية في ذلك الحين».

قد يكون هذا التجاهل عائداً لأسباب طبقية واجتماعية، فهي ليست من الأسر المرموقة في ذلك الحين، كباحثة البادية وعائشة التيمورية ووردة اليازجي وغيرهن... فقد نشأت في أسرة فقيرة، وفي بيت ريفي متواضع كمعظم بيوت الفلاحين في ذلك الزمن. ونظراً لفقر والديها فقد رأيا أن تحل عاملة في دار أحد

البكوات من الأسرة الأسعدية الحاكمة ،وكان مديراً رسمياً في قلعة تبنين... قضت زينب سنوات من عمرها في القلعة ملازمة لنساء آل الأسعد ، وبينهن السيدة فاطمة الخليل زوجة علي الأسعد، (التي كان لها اهتمام بالعلم والأدب شعراً ونثراً) .

وما لبثت الصبية أن استرعت انتباه السيدة فاطمة لما تحمله من فطنة وذكاء وحب للمعرفة . فاهتمت بها وعلمتها القراءة والكتابة وشجعتها على طلب العلم . وكان في بيت الأسعد مكتبة كبيرة مودعة لعالم إيراني يدعى (الكاشاني)، تحوي مخطوطات نادرة وكتباً قيمة . وقد جعلت زينب هذه المكتبة شغلها الشاغل، نقلت منها الكثير إلى تبنين بعد أن ذهب صاحبها الكاشاني، وكان هارباً من ظلم الأتراك، ولم يعد .

ثم دخلت زينب ميدان الحياة الزوجية بعد زواجها من رجل من تبنين، كان يعمل (صقاراً) و(رئيس سواس) في القلعة، ومن رجالات البيك، يدعى محمد حمود فواز (قد يكون أحد أقاربها) . ولم تبق زينب معه طويلاً لتعثُّر التفاهم بينهما . بسبب التفاوت الكبير في المستوى الفكري والثقافي، وفي الميول والأهداف، فلم يلبث أن طلقها لعدم تمازج طبعيهما .

ذكر الشيخ أحمد عارف الزين عن هذا الزواج : «بالطبع لم يكن الفشل فشلها هي، وإنما فشل مجتمعها الذي عاشت فيه، فكيف لمثل هذه الشابة وقد التمعت في أفق تفكيرها معالم الوعي والإدراك أن تعيش مع رجل أميّ بينه وبينها تفاوت كبير في المستوى الفكري والثقافي؟ وأين لمثل هذه الزوجة أن تلتقي مع زوج لا يتسع أفقه لطموحاتها الأدبية والفكرية وتطلعاتها الإنسانية البعيدة في عصر كعصرها؟» .

كتبت زينب فواز في «الرسائل الزينبية» ،وهي من أعمالها الهامة المبكرة : (ماذا تؤثر آداب المرأة وحسن سياستها في نفس الرجل السيىء الأخلاق؟ فالمرأة إذا اقترنت بالرجل السيىء، وأوقفت قلبها عليه، وسلمت أمرها إليه، واجتهدت في مرضاته، فلا ترى منه إلا الفتور، والتمادي في طريق اللهو والغرور، واتباع خطة

الشهوات والشرور، فتصير كمن كتب على صفحات الماء أو تعلق بالهواء، فتندم من حيث لا ينفع الندم ،ويصعب الخلاص بعد رسوخ القدم. وحينئذ يلازمها الحزن الذي لا ينقطع إلا بانقطاع التواصل. وإذا كانت الحال كما وصفت، فلِمَ لا تفضل حالتها الأولى على قرين السوء)؟

وتحررت زينب فواز من الزواج الفاشل لتتابع طريقها، طريق العلم والمعرفة والأدب. وقد زادتها التجربة قوة ومناعة ودفعتها إلى المزيد من دراسة وضع المرأة في البيئة والمجتمع الذي تعيش فيهما وخارجهما، حيث لا تستطيع المرأة أن تبقى وحيدة متحررة من ارتباطها بالرجل.

وهنا واجهت زينب أوضاعاً غريبة ومعقدة، فقد بدأ الكلام عن زواج جديد من قريب لها، شاء أن يرغمها على الزواج منه، بل حاول اختطافها، وتخلصت منه بأعجوبة.

وهناك روايتان في موضوع سفرها إلى مصر:

الرواية الأولى - للسيدة فوزية فواز التي تقول: (كان من الطبيعي لفتاة طموح كزينب فواز أن تتجه أنظارها وآمالها إلى مصر... فسافرت مثلها مثل أقرانها من أدباء بلاد الشام بمساعدة أخيها محمد علي فواز، أو معه! وكان كما تصفه في إحدى رسائلها قد درس المحاماة في مصر، وقد طلبت أن توجه الرسائل المرسلة إليها إلى عنوانه. ويبدو أن أخاها كان متزوجاً هناك وأنجب، إذ إن جريدة «المؤيد المصرية» قدمت تعازيها عندما نشرت نعي زينب، لإبن أخيها الفاضل علي أفندي فواز).

وسبب سفرها إلى مصر، أنه كان عندها رغبة قوية في الاستزادة من العلم والمعرفة، وممارسة نشاطها الأدبي والفكري في بيئة أكثر انفتاحاً وتحرراً من بيئتها. كانت مصر في تلك الفترة موئلاً لطلبة العلم والمعرفة ومقصداً للعاملين في الحقول الصحفية والفكرية من لبنانيين وسوريين، نظراً لما كانت تتمتع به من حرية فكرية خلافاً لما كانت عليه بلاد الشام، التي ما انفك العثمانيون يضيقون على مفكريها وأدبائها.

وهناك رواية أخرى - غير موثقة في موضوع سفرها إلى مصر نقلها جرجي نقولا باز تقول: عندما حاول أحد أنسبائها إكراهها على الزواج منه، صدّته. ولما هددها هربت إلى بيروت مع قافلة من المكاريين، وراحت تطرق أبواب المنازل طالبة الاستخدام عند إحدى الأسر الغنية، حتى تهيأ لها ذلك في أسرة يوسف حمدي يكن المصرية. ثم سافرت معها إلى الإسكندرية، وهناك استرعت انتباه الأستاذ حسن حسني الطوبراني صديق أسرة يكن وصاحب جريدة «النيل»، فاهتم بها وساعدها على التعلم.

تبقى الرواية الأولى أكثر توثيقاً نتيجة بحث وتقصي المجلس الثقافي للبنان الجنوبي والسيدة فوزية فواز شخصياً.

زينب في مصر

أبدت الفتاة في مصر، ذكاءً خارقاً ووعياً عظيماً لاغتنام الفرصة الذهبية التي أتيحت لها، فلفتت بذكائها نظر حسن حسني الطوبراني الذي كان أديباً وصاحب جريدة «النيل». فتتلمذت على يديه، وأخذت عنه علوم الصرف والبيان والعروض، وتلقت علوم النحو والإنشاء عن الشيخ محمد شبلي، والأستاذ محيي الدين النبهاني.

واكتملت شخصيتها الأدبية في مصر، وحققت تطلعاتها الفكرية، التي تجلت في معالجتها لشتى الموضوعات السياسية والاجتماعية، ومقالاتها في صحف ذلك العهد سجلت أعظم إنتاج أدبي وفكري نسائي، إذ اتخذت من الصحافة منبراً لإسماع صوتها للناس، مطالبة بحرية المرأة وحقوقها...

وتظهر نزعة زينب فواز التحررية، بدعوة أبناء وطنها للاشتراك في الجمعيات والمعارض والمؤتمرات العالمية، وخاصة مؤتمر النساء العالمي في سانتياغو عام ١٨٩٣م، الذي انعقد لدراسة شؤون المرأة وحقها في التعليم، وقد صوتت المشاركات في المؤتمر يومئذ على قرار يرمي إلى تحديد تعليم المرأة، وحصر نشاطها في بيتها وأسرتها. وكانت السيدة الأديبة هنا كوراني ممثلة لنساء سورية في ذلك المؤتمر. فأنبرت زينب فواز تناهض هذا القرار، وتنتقد بعنف اللواتي أشرفن على المؤتمر، مؤكدة وجوب إطلاق المرأة في جميع مجالات النشاط الإنساني، ولاسيما في ميدان العلم.

كانت زينب فواز ترى أن نضال المرأة العربية جزء من نضال نساء العالم من أجل المساواة والحرية، وكل نجاح تحققه المرأة في أي مكان هو نجاح لنساء العالم، كانت متقدمة جداً بطرحها على الطروحات الدائرة في الغرب والشرق آنذاك.

وتحت عنوان المرأة والسياسة «الرسائل الزينبية» ص ١٩ -«جريدة النيل»، تردّ أيضاً على السيدة هنا كوراني التي كتبت مقالاً في جريدة «لبنان» تدعو فيه إلى حصر المرأة همها في منزلها وإقلاعها عن مزاولة الأعمال الخارجية المختصة بالرجال كالسياسة مثلاً، وكان ذلك على أثر ظهور حركة نسائية في لندن، أيام غلادستون، تطالب بأن تشارك المرأة في سياسة البلاد. فهبت زينب تؤيد هذه الفكرة، وتحمل على كل من يقف ضدها. وقد ورد في مقالها: (مادام الرجل والمرأة متساويين في المنزلة العقلية، وعضوين في الهيئة الاجتماعية، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، فما المانع إذا اشتركت المرأة في أعمال الرجل، وتعاطت العمل في الدوائر السياسية، وغيرها، متى كانت كفؤاً في تأدية ما تطمح إليه؟).

كانت زينب فواز أول من طالب بتحرير المرأة في العالم العربي، حتى قبل دعوة قاسم أمين، رائد مناصرة المرأة وعائشة التيمورية. بل كانت أول صوت نسائي في مصر على طريق النهضة والتحرير، وبالطبع قبل مي زيادة وهدى شعراوي. وهكذا رأينا زينب تنادي بمسلمات جديدة، وتدعو إلى سن قوانين جديدة تنظم حياة المرأة، وتضمن لها حقها بالعلم والعمل. فكانت أول امرأة تحمل قضيتها بنفسها وتطرحها أمام المحاكم الإنسانية. وأول رائدة تحمل مثل هذه الرسالة في الشرق العربي كله، معتبرة أن الحضارة والتطور والإصلاح لا تكون إلا عن طريق العلم والعمل، منوّهة بدور المرأة الفعال في إقامة مجتمع متمدنٍ راقٍ.

من هنا فإن القيمة الأدبية والفكرية لزينب فواز هي أسبقيتها في رفع صوتها بالدفاع عن حقوق المرأة الشرقية والدعوة إلى تعليمها. أما قاسم أمين فقد كان متأخراً عنها بمناداته بتحرير المرأة، فمن الثابت أن رسائلها «الزينبية» في موضوعات المرأة التي كانت تنشرها في الصحف المصرية، بدأت قبل عام ١٨٩٢م، بينما لم ينشر قاسم أمين كتاب تحرير المرأة إلا عام ١٨٩٩م.

والمعروف أن زينب فواز كانت ذات توجه وطني مؤيد لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني، الداعي إلى خروج الإنكليز من مصر. وكانت تشارك في اجتماعات هذا الحزب ونشاطاته، وبسبب وجودها، غيّر مصطفى كامل الصيغة التي كان يبدأ بها خطابه من «سادتي» إلى «سيداتي سادتي».

كتبت زينب رسالة إلى الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة «العرفان»، الذي انتقد في إحدى مقالاته طلبها إطلاق حرية المرأة في جميع مجالات النشاط الإنساني، تقول فيها: (أما ما جال في فكر سيادتكم من أن المرأة لا تقدر على القيام بأعمال الرجال، فهو غلط أيها الفاضل. وها هن نساء الغرب يتفوقن على الرجال كما تدل سيرهن التي وضعتها في الكتاب المرسل إليك «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور». ونحن نساء الشرق لا يمنعنا الحجاب من التفوق والخوض في كل مجال).

كانت زينب فواز ذات نظرة شمولية ترفض أن تحدد المرأة نشاطها في دور واحد دون سواه، وبذلك تقدمت على رائدات عصرها، وتعدى اهتمامها وضع المرأة في بلادها ليشمل الوضع النسائي عامة. ووقفتها الشجاعة الواعية، ومناهضتها لقرارات المؤتمر النسائي العالمي دليل على ذلك.

لم تكن زينب تريد من إثباتها فضل النساء سوى تعزيز شأنهن، واعتراف الرجل بأن المرأة مساوية له عقلاً ومنزلةً.

لم يكن صوت زينب فواز صوتاً عادياً، وقد أسمعته لكل من اهتم بالأدب، أو بنهضة المرأة في زمانها من مصر إلى بلاد الشام. ورغم رضوخها لبعض التقاليد، فلم تكن زينب راضية ببقاء المرأة العربية مراوحة مكانها، بل كانت ترسل النداء تلو الآخر، وتحثها على النهوض عبر مقالاتها المتعلقة بالمرأة. المنشورة في عدد من الصحف والمجلات في مصر، التي كانت واسعة الانتشار في الأقطار العربية وفي مقدمتها: «النيل، المؤيد، الأهالي، المهندس، الفتاة، المقتطف، أنيس الجليس، اللواء» وسواها.

كانت زينب جريئة في التصدي الفكري للنهوض بالمرأة والمجتمع عن طريق العلم والمعرفة، وذلك في عهد لم يكن فيه صوت المرأة مسموعاً. وكثيراً ما ناظرت الأدباء في هذا الموضوع، رغبة منها في التأكيد على إمكانية المرأة، وكم كانت تنتفض ثائرة إذا قرأت أو سمعت أن واحدة من بنات جنسها أعلنت رأياً فيه شيء من التحفظ على حقوق النساء، كما في ردها على الأديبة هنا كوراني وغيرها.

تناولت زينب فواز موضوعات كثيرة متنوعة، فتحدثت عن الصداقة والوطنية والجوع والمرض. كما كان لها مواقف سياسية جريئة، من أمثال ندائها إلى أبناء أمتها تدعوهم فيه إلى طرد الاستعمار. فكان هذا النداء الأول الذي يصدر عن امرأة عربية في تلك الفترة، تقول فيه: (لماذا تصبرون، ولأي شيء تنتظرون؟. إني ليحزنني ما أراه في حالة أبناء الوطن من الذل والامتهان. ويذيب المهج تأسفاً وحسرةً على أمة تقطعت بها الأسباب، وحرمت ظلماً وعدواناً من منافع بلادها، وقد تمتع الأجانب بتلك المنافع دون أبناء الوطن. حتى إن الوطني يطرد من محل خدمته ويخوض في بحار الفقر، وقد يلهونه برتبة أو نيشان ليفتخر به على أقرانه).

وبعد أن تعدد مساوىء الاستعمار، ونتائج تعسفه، تقول: (هذا وحكومتنا ساهية غافلة لاهية، وقد ضلت منها الأفهام، وغلبت عليها الأوهام، وهي خاضعة لعوامل الاحتلال، متناسية مصالح الأمة، متمسكة بمنافع رجالها الشخصية.

هل تخشون أيها الرجال أن تسلب منكم المناصب ، لو أنصفتم هذه الأمة التعيسة التي توليتم شؤونها ويتولاها غيركم من الأجانب؟ ألم تنظروا إلى الأمة البويرية وما فعلت في سبيل استقلالها؟ وكيف أنها اختارت الموت أو تعيش حرة لا تقبل السلطة البريطانية؟ ألم تروا أن الحكومة البويرية ألفت من الضعف قوة وقاومت هذا الطود العظيم؟ .

لم أسمع بأن حكومتنا عارضت رجال الاحتلال في شيء ما . ولو عارضت في أمر يعود على أبناء الوطن لنجحت . ولكن وجدكم رجال الاحتلال لقمةً لينةً هينة المأكل فابتلعوكم .

وإني ليسرني أن أرى من أبناء وطني روح الحياة ، فيؤلفون الأحزاب ، ويدافعون عن حقوقهم المهضومة ، فلتقو منكم العزائم أيها الرجال ، فأقدموا على العظائم ، وقد علمتكم كيف يقترن العلم بالعمل . وإني لأرى من خلال الحجاب أن فيكم الكفاءة لأن تقفوا أمام العالم الدولي ، وتناضلوا مدافعين عما لكم من الحقوق ، فهبوا من رقادكم أيها المسلمون ، واعلموا أن الحكومة لا تسعى ، ولن تسعى في ترقيتكم ، فالأجدر لكم أن تسموا بأنفسكم ، والله المستعان) .

إنها ثورة فعلية ، وتمرد على كل أنواع التعسف والقهر ، ثورة صادقة كمعظم آرائها التي بثتها في مختلف الصحف المصرية في ذلك الزمان .

لقد كان جلّ اهتمامها أن تحقق ما كانت تصبو إليه نفسها من خلق أساليبٍ للعيش أجدى وأفضل ، لتكوين مجتمع أكثر تلاحماً وانسجاماً . مجتمع قائم على العدالة الاجتماعية وتحقيق المساواة ، ولشد ما كان يؤلمها في هذا المجال ما تراه في أبناء أمتها من تخاذل وخنوع وذل . فترفع صوتها مدوياً في الشرق والغرب تهيب بهذا الشرق أن ينفض عنه غبار التواكل والجهل والغباء ، وأن يحتكم للعقل والرأي ، فهما السبيل إلى العلا والمجد ومواكبة الحياة ، فتقول :

واها رجال الشرق صرنا عبرة
بين الورى من سامع أو رائي
وهناك في الأصلاب قوم بعدنا
يحصون ما يمضي من الأبناء
فلئن نبا السيف الصقيل ففي النهى
والعلم، سيفا حكمةٍ ودهاء
ولئن كبا الطرف الجواد فلم يزل
للعقل ميدان لنيل علاء
ولئن أبى ذو الحقد نيل رجائنا
فالرأي يضمن نيل كل رجاء
هيهات ما العميان كالبصراء
كلا، ولا الجهلاء كالعلماء
نروي عن الماضين «ما فعلوا» فما
يروي بنو الآتي عن الأبناء؟

زينب في سورية

وصلت شهرة زينب إلى سورية، وأعجب بأسلوبها الكاتب السوري أديب نظمي الدمشقي المولود في دمشق عام ١٨٤٠م. وكان يتعاطى الصحافة والأدب ورئيس جريدة «الشام»، وهي أول جريدة إخبارية اجتماعية صدرت في دمشق عام ١٨٩٦م. كما كان رئيس كتّاب غرفة التجارة في ولاية سورية، ثم معاون مُدَّعٍ عام.

استمر الاتصال الفكري والكتابي بين أديب نظمي وبين زينب فواز حتى انتهى الأمر بهما إلى الزواج الذي ظنت زينب أنها ستجد فيه تحقيقاً لسعادتها، ومجالاً أوسع لانطلاقتها الأدبية، وتحقيقاً لرغبة الأمومة التي كانت تقدسها، وعقد له عليها وهي في الإسكندرية عند أستاذها حسن حسني الطوبراني، وحضرت إلى دمشق وهي زوجة له شرعاً.

كان قدومها من الإسكندرية إلى بيروت بالباخرة، ومن بيروت إلى الشام بالسكة الحديدية، ثم إلى قرية الشيخ مسكين، ومنها ركبت بغلة مطهمة مكسوة-وهي مركوب الأكابر في ذلك الحين- إلى حيث يقيم أديب نظمي في قرية (الشيخ سعد) وهي قرية من قرى حوران، اختارتها الحكومة العثمانية لوجود ينابيع فيها، وعلى مقربة منها بناء أثري يدعى (دير أيوب) اتخذته كمقر للمتصرّف، وأمرت بعض الموظفين ببناء الدور إلى جانبه لسكناهم، ومن بينهم أديب نظمي.

إلا أن زواجها من أديب نظمي لم يدم أكثر من ثلاث سنوات أقامتها بين حوران ودمشق، ثم ضاقت ذرعاً بحياتها الجافة القاسية، وكان أشد ما يضايقها أنها لم تجد في دمشق في حينه ما كانت تجده في مصر، من فرص كتابة ونشر ونشاط اجتماعي، بالإضافة إلى عدم وصول الصحف والمجلات المصرية في أوقات متقاربة، إضافة إلى أن بعض الصحف كان محظوراً عليه الدخول إلى بلاد الشام من جهة، ولأن البريد لا يأتي سوى مرة واحدة كل أسبوعين، وأحياناً يتأخر شهراً من جهة ثانية. بالإضافة إلى ما اكتشفته من أن لزوجها ثلاث نساء غيرها، وأربع بنات من زوجته الأولى زكية التركية. فآذاها هذا الأمر، وكان من الطبيعي ألا ترضى بوضعها زوجة رابعة. وأن لا يعمر هذا الزواج طويلاً، خاصة أنها كانت ضد تعدد الزوجات، وكثيراً ما كتبت في مساوئه و أنه وبال على الطرفين، لأنه يقضي على المرأة بالغيرة، وعلى الرجل بنكد الدهر، ويورث الأولاد العداوة بعضهم لبعض أشد من عداوة الأمهات.

والجدير بالذكر أن أديب نظمي حاول أن يوفر لزينب كل ما من شأنه أن يرضي رغباتها الفكرية، فاستقر في دمشق، ظناًمنه أن الحياة فيها أسهل من الحياة في قرية منعزلة، وأكثر انفتاحاً على الأجواء الأدبية. وبالفعل فقد نقل زوجها تلك الأجواء إلى داره حيث كان ينعقد المجلس الأدبي الأسبوعي ويشارك فيه وجوه الأدباء والمفكرين في دمشق، أمثال: حسن عبد المجيد الدوماني، أبو السعود مراد، عبد القادر بدران، سليم عنحوري، رشيد الحشيمي، سيد السلطجي، صالح طه، محمود حمدي، يوزباشي العساكر الشاهانية، حسين حسني، عمر نحولي -من صيدا-، عبدو الحمصي، صالح وهب البغدادي، محمد عبد المجيد الدوماني -نسبة إلى دوما-، وغيرهم من أدباء ومفكري ذلك العهد.

كان هؤلاء جميعاً يحضرون مجلس زينب فواز، ويتعاطون الشعر والأدب نظماً وتشطيراً. وكان أديب نظمي زوجها رسولاً بينها وبين القوم، إذ تجلس هي وراء ستار قريب، أو في غرفة مجاورة... يحمل منها وإليها ما قالت وقالوه، إن التقاليد الصارمة كانت تحول دون انطلاق المرأة حتى ولو كانت كاتبة أو مفكرة، انطلاقاً كلياً في ميادين الحياة. ومع ذلك فرضت زينب شخصيتها، لكنها لم تستطع في هذه الظروف القاسية أن تكون رائدة متحررة من رائدات الفكر الغني، فأحست بغربتها وبركود انطلاقتها الأدبية، إذ من الثابت أنها انقطعت عن الكتابة في تلك الفترة، ثم تاقت نفسها إلى العودة إلى القاهرة، خاصة أنها لم تصادف سعادة في حياتها الزوجية في دمشق.

وهكذا أفاق الزوج ذات يوم ليكتشف أن زينب لم تعد تطيق البقاء في هذا الجو، فما كان أمامها إلا الطلاق والعودة إلى مصر تاركةً في قلب أديب نظمي حزناً شديداً على فراقها، وفي قلوب السوريين الذين عرفوها وأحبوها كل حب مع التقدير والإعجاب.

ويقال إنه عندما سئل أديب نظمي، إذا صدف أن تشاجر مع زينب أو ضربها، أجاب شعراً:

رأيت أناساً يضربون نساءهم
فشلت يميني يوم أضربُ زينبا

فزينب شمس والنساء كواكب
إذا طلعت لم تُبقِ منهن كوكبا

وفي مصر عادت زينب فواز إلى متابعة حياتها الأدبية والفكرية. إلا أن كل ما لاقته من شهرة ونجاح لم يستطع أن ينسيها وطنها الأول، فقد كانت دائمة الحنين إلى ربوع طفولتها (تبنين)، وعبرت عن شوقها في قصيدة وجدانية أرسلتها إلى صاحب مجلة «العرفان»، تقول فيها: (ذكّرتني يا صاحب العرفان ما لا أنساه من معالم أوطاني، فنطق لساني مخاطباً قلعة تبنين:

ياأيها الصرح، إن الدمع منهمل
فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا

وهل بقي فيك؟ من ينعي معي فئة
هم المقاديم، في يوم الوغى، الأول

قد كنت للدهر نوراً يستضاء به
اخنى عليك البلى يا أيها الطلل

كم زيّنتْك قدود الغيد رافلة
بالعز تسمو ووجه الدهر مقتبل

* * *

أبكيك يا صرح كالورقاء نادبة

شوقاً إليهم، إلى أن ينتهي الأجل

قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني

أن الدموع على الأوطان تنهمل

تبنين! إن كنت في بعدي على حزن

فاليوم، يوم رجوعي، القلب يشتعل

وقفت وقفة مشتاق به شغف

علّي أرى أحداً يحيا به الأمل

إذ الأحبة قد سارت ركابهم

فزاد شوقي كما قلّت بي الحِيَلُ

«القلعة» الشوق! لا الوادي بها فرح

كعهده بالألى كانوا ولا الجبل

أعلى هيوسنت[1] أبراجاً لها عجبا

تصارع الدهر لا ضعف ولا ملل).

نلمس في هذه الأبيات حنين زينب فواز إلى وطنها، رغم أنها كانت تعرف أن أحبتها قد رحلوا، وإن الأمور في القلعة قد تغيرت، وهي وإن كانت تكابد الشوق الذي لا ينفك يزداد إلا أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً. فتقف وقفة العاجز الذي يعيش حالة عنوانها، ثنائية القلب يشتعل قلت بي الحيل.

(١) - هيوسنت: اسم باني قلعة تبنين.

ويبدو أن الأديبة زينب فواز كانت تنوي العودة إلى تبنين، ولكن المرض ألمّ بها وحال دون تحقيق أمنيتها، وبقيت الأديبة تعاني هذه الحالة، إلى أن توفيت في السابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٤م . وجاء في النعي الذي نشرته الصحف اللبنانية والمصرية في حينه:

(نعت إلينا أنباء مصر المرحومة زينب فواز الكاتبة والشاعرة والمؤلفة، وأول امرأة اشتهر اسمهافي عالم الأدب والكتابة في الصحف. وقدنالت شهرة بعيدة في حياتها ونالت حظوةً كبيرةً عند كبار أدباء مصر وسورية ولبنان).

كما صدرت مجلة «العرفان» في السابع والعشرين من كانون الأول عام ١٩١٤م، وفيها الخبر التالي:

(نعت إلينا أنباء مصر المرحومة زينب فواز، وهي عاملية ولدت في قرية تبنين من أعمال صور جنوب لبنان، واطلعنا على كتابها «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» لنرى إذا كانت قد ترجمت لنفسها فيه، فلم نحظ ببغيتنا.

هذه هي فقيدة الآداب العربية اليوم، التي لم يعرف لها أهل هذا الجيل حقها، شأنهم في عدم تكريم نوابغهم، فضلاً عن نابغاتهم. وقد انتقلت لجوار ربها عن عمر ذرَّف على الستين تاركةً أثاراً خالدةً وذكرى جميلة. تغمدها الله برحمته وأسكنها فسيح جنته).

ماتت زينب فواز وفي خيالها طيف المرأة العربية التي ناضلت من أجلها طيلة حياتها. عاشت أموراً مصيريةً هامة وطنية واجتماعية وتفاعلت معها وأحست بالالتزام تجاهها. فانطبع أدبها بتلك المعاناة.

تقول الأديبة إميلي نصر الله في مداخلتها في ندوة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي عن زينب فواز إنها: (رحلت بعد ما حملت رسالة بعث المرأة العربية من

جمودها ورجعية محيطها. وصورت المجتمع المصري على حقيقته، خصوصاً أوضاع المرأة فيه، وقد مكنتها خبرتها ونظرتها الثاقبة وتحررها الفكري من كتابة أعمال في غاية الأهمية.

وإذا بقيت بعض الزوايا من حياة هذه الأديبة يجهلها الباحثون وكتّاب السيرة، فلأن زينب اهتمت بالكتابة عن غيرها، ولم تكتب عن نفسها، وربما تركت أمر ذلك لمن يأتي بعدها.

ولا أجد أفضل من وقفتها الفلسفية، خاتمةً لكلمتي عنها، إذ قالت:

(بدء الحياة وجود حيث نغشاه
نظل نرجو وما نرجوه نخشاه
والمرء في جوهر الدنيا حكى عرضا
يزول عنها وتبقى عنه دنياه
والعيش في كرة الغبراء مشغلة
بين الحوادث والعقبى قصاراه
والجمع مهما صفت أيام نضرته
فإن تبديد ذاك الشمل عقباه
والسعي في الدهر آمال يمر به
عمر تحيل أمانيه مناياه
لا شيء من زينة الدنيا لساكنها
سوى محاسن ما تبقيه ذكراه)

أعمال زينب فواز

كانت زينب فواز أديبة ملأت كتاباتها أسماع أبناء وبنات عصرها، فقد تركت إنتاجاً أدبياً وفكرياً متنوعاً، توزع بين مطبوع ومخطوط، وتراوح ما بين الرواية والأدب الاجتماعي والقصة والمسرحية والشعر، عدا عن التراجم. ولكن المؤسف أن معظم أعمالها مازال الحصول عليه صعب المنال.

يقول الكاتب المصري حلمي النمنم في كتابه «الرائدة المجهولة» : (وإذا عدنا إلى ثمانينات وتسعينات القرن الماضي، فستقابلنا سيدة ملأت كتاباتها أسماع ذلك الزمن، مقالات ومناظرات وتأليف كتب ومشاركة في القضايا السياسية والاجتماعية، مع التركيز القوي على قضايا المرأة وحقوقها، هي زينب فواز. وكانت معاصرة للأديبة والشاعرة عائشة التيمورية التي كتبت قصيدة في الإشادة بأحد مؤلفات زينب «الدر النثور في طبقات ربات الخدور» وسبقت باحثة البادية بعقود).

أعمالها المطبوعة:

(*) - في المسرح : «الهوى والوفاء» مسرحية طبعت عام ١٨٩٣م في مطبعة الجامعة -شارع وجه البركة- نمرة ٤٢ .

(*) - في السيرة : «الدر النثور في طبقات ربات الخدور» طبع في مصر في المطبعة الكبرى الأميرية -المشهورة بمطبعة بولاق عام ١٨٩٣م.

(*) - في المقالة :

١ - «الرسائل الزينبية» - مجموعة مقالات نشرت في أكبر الصحف المصرية المعروفة آنذاك. جمعت في كتاب من ٢١٨ صفحة. وقد رتبت المقالات حسب تاريخ نشرها عام ١٨٩٢ - ١٨٩٩.

٢ - «كشف الإزار عن مخبئات الزار» مجموعة مقالات تتحدث عن واقع المجتمع المصري والآفات الاجتماعية المسيطرة عليه. نشرت في مجلة «النيل».

(*) - في الرواية:

١ - «حسن العواقب أو غادة الزهراء» طبعت عام ١٨٩٩ في مصر في مطبعة هندية -شارع المهدي- بالأزبكية.

٢ - «الملك قوروش أو ملك الفرس» رواية تاريخية غرامية، طبعت في مصر عام ١٩٠٥م في المطبعة الهندية.

(*) - في الشعر: ديوان لم يعثر عليه، ولكنها أودعت كتبها بعض قصائده. مثل وقفتها أمام قلعة تبنين تبثها شوقها وحنينها عن بعد، آملة العودة إلى ربوعها الأولى.

مقاطع من ديوان شعرها، تم العثور عليه:

للشرق فضلٌ في البرية إنه يأتي الوجود بكل حسن معجب

والغرب أظلم ما يكون لأننا نشقى بفرقة شمسنا في المغرب

وقالت متغزلة:

لا زال قلبي مدى الأيام خفاقا وبدر حسنك يجلو العين إشراقا

تكون الجسم منه من سنا قمر حتى تكامل إلماعاً وايناقا

نور تجلى على الأرواح منفرداً حتى جلى منه في الأحشاء إحداقا

سرى غرامك في قلبي وفي جسدي لذاك أثر إسقاماً وإخراقا

كلي بك مشغول ومرتبط فلست أشكو إلى لقياك أشواقا

وأصبح القلب من وجد يذوّبه نور الشبيبة تهياماً وإشفاقا

وقالت أيضاً:

جمعتني يوماً والحبيب منازل وتعطف الدهر الذي هو باخل

دارت كؤوس الأنس فيما بيننا وبدا لدينا في الغرام دلائل

وغدا يعاطيني مدام حديثه واللحظ بالسحر الحلال يغازل

مالت بنا الصهباء في سنن الهَوَى حتى وجدنا للكلام أوائل

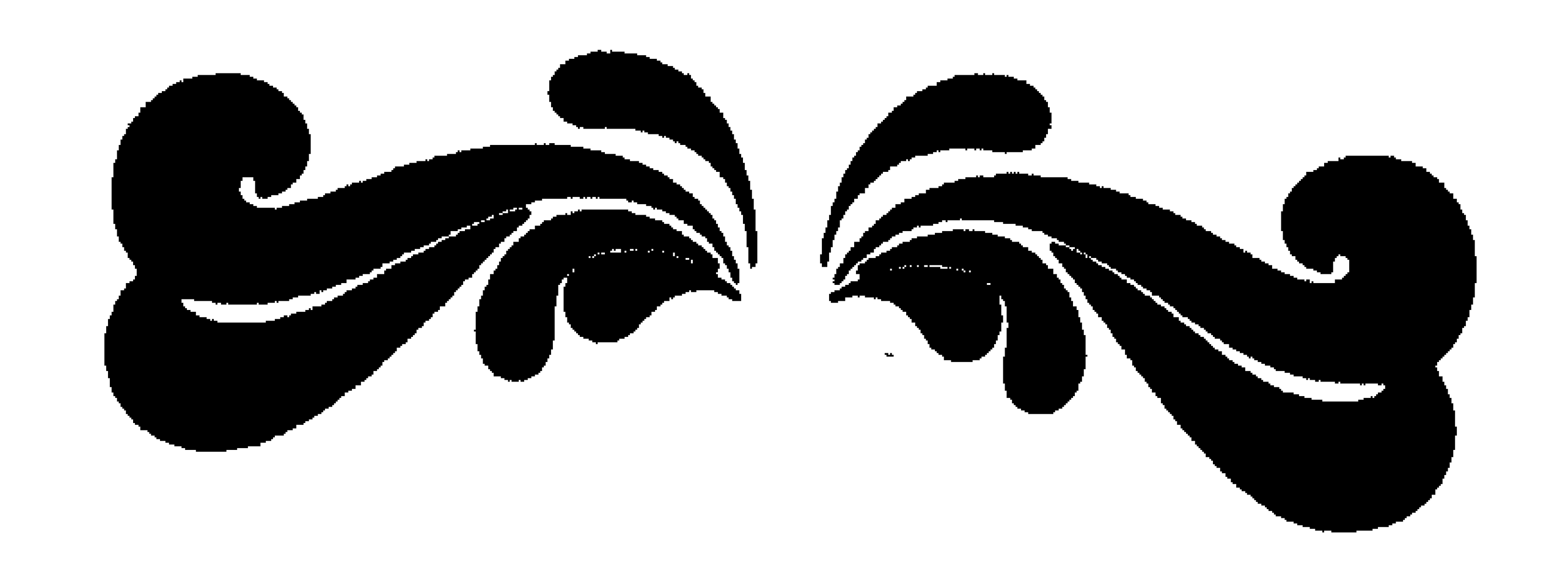
جاذبته نحوي وكان مقنعاً فتمايل القد الرطيب العادل

فلمست بدر التم بين أناملي لكنه قد حال دوني حائل

وقالت في رثاء أخيها محمداً الذي توفي عام ١٩٠٣م بقصيدة مطلعها:

مصاب عظيم الوقع في النفس هائل وخطب جسيم الصدع للقلب غائل

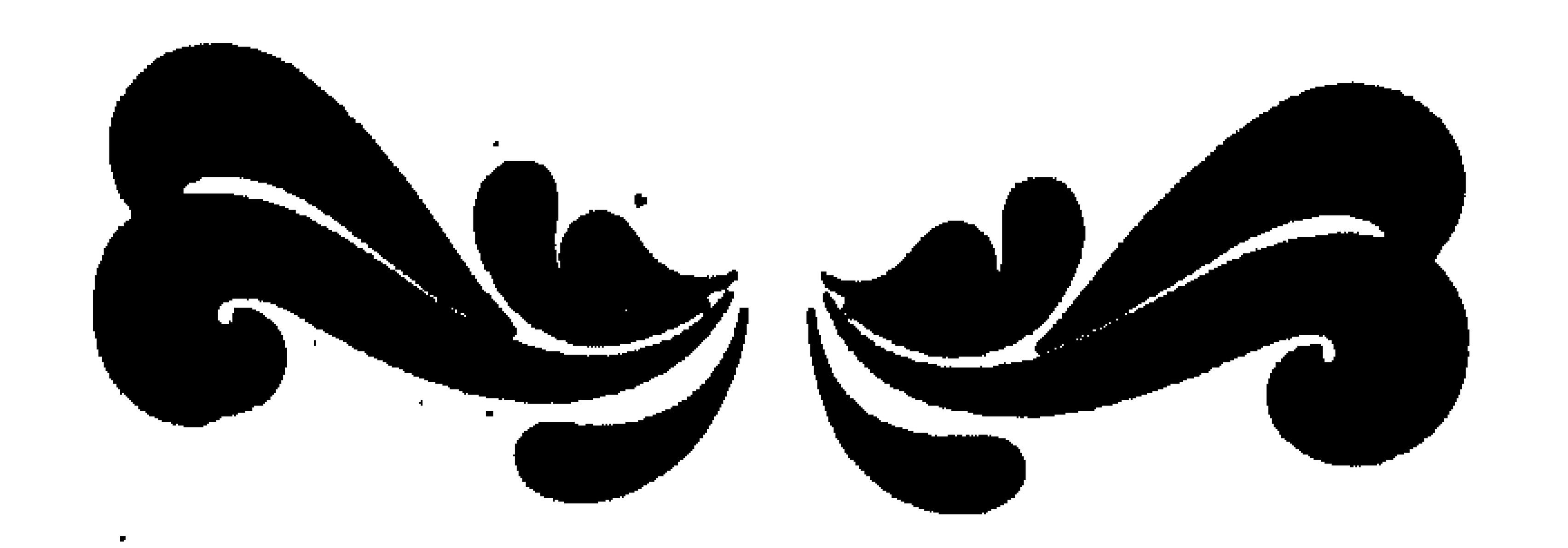
سأبكيك ما الأطيار تألف وكرها وما صدعت بين الصدور البلابل



الهوى والوفاء

(مسرحية)

ذات أربعة فصول



مسرحية الهوى والوفاء

«الهوى والوفاء» مسرحية في أربعة فصول، وأربعة وتسعين صفحة، وهي عبارة عن قصة حبٍ تدور حوادثها في العراق بين البصرة وبغداد، وتتخللها آراء ومواعظ ذات مغزى خلقي غايته التوجيه والإرشاد. وقد عرَّفتها المؤلفة زينب فواز نفسها بقولها: (هي فوتوغراف واقعة عصرية، عمَّن جمعتني وإياهم نعمة الصدقة، ورابطة الصداقة والمعرفة، اخترتها لرقة موضوعها وغرابة أسلوبها).

حاولت زينب نقل صورة عن حياة الشرق إلى المعرض الكولومبي عبر مسرحيتها هذه، فقد جاء في نهاية إحدى رسائلها للسيدة بالمر ﴿مسؤولة القسم النسائي في المعرض﴾ قولها: (أخبرك أيتها العزيزة أن لدي الآن رواية تشخيصية من حوادث عصرنا الحالي، وأشخاصها من أعز أصدقائي، فإن أمرتني أرسلها لك، حتى إذا حازت إعجابك بعد ترجمتها، تأمرين تشخيصها في المعرض المذكور، كصورة عن حياتنا في الشرق).

إن تطور الأحداث، ودقة وصف الشخصيات، في هذه المسرحية، يعبر عن إدراك عميق لخصائص العمل الموجه بشكل خاص إلى جماهير النساء.

وقد أشاد حسن حسني الطوبراني صاحب ومحرر جريدة «النيل» بمسرحية الهوى والوفاء بنظم قصيدةٍ، جاء فيها:

هذا يراعٌ بارعٌ قد كتب ... أم ذاكَ قسٌ في عُكاظٍ خطب

أم روضةٌ غناءُ، أفنانُها ... مالتْ بنا من نشوةٍ في طربْ

مناظرٌ في كُلها حكمةٌ ... تُهدي لرائيها المعَاني والعَجَبَ

ما حقَ أن تُسطَر أسفارُها ... بالماسِ في ألواحِ صرفِ الذهب

لا بل جديرٌ أن يرى نفسها ... على جَبينِ الشمس شعراً وقَب

رقت معانيها وألفاظُها ... كالراحِ في كَأسٍ صفا واضطربْ

جادت بها ذاتُ عفافٍ سمَتْ ... فكراً بدت أنوارُه واحتجَبْ

مفضالةٌ أحيتْ بآدابها ... آثارَ رباتِ خُدورِ العَرب

فلتزدهِ في عصرها زينَبُ ... ولتسمُ في الفضلِ أعالي الرُّتَب

أحبتِ الشرقَ فشمساً غَدَتْ ... بعلمها والمرءُ مع ما أحَبْ

لم يغتد العلمُ لها حليةً ... بل صارَ ذاتياً لها وانتسب

وهذه آثارها أقبلت ... تقولُ يا سبحانَ مَن قد وَهَب

رواية جاءت لأهل النُّهى ... فقلتُ تاريخاً لها قد وجب

أنعِم بتمثال الهوى والوفا ... رواية فاقتْ جمال الأدب

كما قام الأستاذ الأديب عبد الله فريج بتقريظ المسرحية، قائلاً:

يا مصرُ بشرى بأنواع المسراتِ ... إليكِ سعداً رنتْ عينُ العناياتِ

لقد أتاك مليكٌ في شبيبتِهِ ... تَحني الكُهولُ له في الفضلِ هاماتِ

مليكُ عدلٍ همامٌ فاضلٌ فَطِنٌ ... حليمُ طبعٍ لطيفُ الخلقِ والذاتِ

شهمٌ صبَا لاكتسابِ الفخرِ منْ صغَرٍ ... حتى به قد رقي أعلى المقاماتِ

به غدت مصرُ في أيام دولتِهِ ... أزهى رياضٍ وجناتٍ عليّاتِ

كـأنهـا كـعـبـةٌ أضـحى يحجُ لهـا ... كلُ الملا في الورى من غـيـرِ مـيقـاتِ
والعلمُ في عـصـرهِ أعـلامُـه خـفـقَتْ ... فنكّست لجـيـوشِ الجـهلِ راياتِ
عـصـرٌ به الشـرقُ في آفـاقـه سطعتْ ... شـمـوسُ فـضلٍ بأنوار بهـيّـاتِ
فـمـا عـجيبُ إذا الغـادات قـد نبـغتْ ... فـيـه وفُـزنَ لدى سـبقٍ بغـاياتِ
لاسيـمـا زينب الحسناء مَنْ وُصِـفَتْ ... بكل فـوزٍ وفـخـرٍ بينَ غـاداتِ
أديبةُ العصـرِ ذاتُ الخدْرِ مَنْ شـرُفتْ ... كـتـاجِ فـخـرٍ على هامِ الأديبـاتِ
في كلِ علمٍ لهـا البـاعُ الطَويلُ كـمـا ... في كلِ فنٍ لهـا أوفى مـقـالاتِ
تثني عليـهـا جـمـيعُ الخلقِ في أدبٍ ... من سـيـداتٍ تُحـاكـيـهـا وسـاداتِ
لهـا يراعٌ رعـاهُ اللهُ مَن عَطَبٍ ... له فـعـالٌ تحـاكي السـمـهـريَّاتِ
أهدتْ لنا من نظيمِ الدرِّ فكرتَهـا ... روايةً هذبتْـهَـا بالكمـالاتِ
فـيـهـا المعـاني إلى أهل النُهى طَلَعت ... بـدورَ تمٍّ زَهَـتْ فـي وسْـطِ هـالاتِ
سـحـرٌ حـلالٌ إلى القُـرَّاء فـيـه أتتْ ... بمعـجـزاتٍ وآياتٍ جليَّـاتِ
لنا شـمـوسُ الهـدى في أفـقـه بزَغتْ ... فنورُها قـد مـحـا ليلَ الضـلالاتِ
واليـومَ إذ رقَّ طبـعـاً في مـحـاسنه ... فـيـه تغنتْ بتـاريخين أبيـاتِي
هذا كـتـابٌ به جلَّ الهـوى بوفـا ... بالفـخـرِ فـيـه صَفَـا نادِي الرواياتِ

كما قام بتقريظها الأديب جورج مرزا، مدير جريدة النيل، فقال:

هذِي عـقـودُ جُـمـانٍ ... في سِـمط درّ مُـحـبَّبْ
أم الـثـريَّـا تجـلَّـتْ ... عـلـى انـتـظـام مـرتَّـبْ
بـل تـلـك آيـاتُ حـسنٍ ... مـن فـكـرةٍ لـيـس تُـغْـلَـبْ

روايةٌ نمقتها لطفاً أناملُ زينبْ

من أهلِ فوازٍ فازت في كلِ فنٍ بمطلبْ

روايةٌ كلُّ راوٍ يُطري عليها ويطربْ

هي الهوى للمُعنَّى وهي الوفا للمهذبْ

فأين موليير يُروي وأين نقَّاش يُعجب

يقولُ هذا لهذا هلمَّ كي نتألبْ

فقد أغارت علينا براعةٌ من محجَّبْ

الدر المنثور
في
طبقات ربات الخدور

تأليف
الأديبة الفاضلة السيدة
زينب بنت يوسف فواز
العاملي

دار المعرفة
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الدر المنثور في طبقات ربات الخدور

يعتبر «الدر المنثور» من أكبر وأشهر كتب زينب فواز، وأكثرها قيمةً أدبية وموضوعية، طبع عام ١٨٩٣م، ويقع في ٥٥٢ صفحة من القطع الكبير.

وقد ترجمت في هذا الكتاب لعدد من النساء الشهيرات في الشرق والغرب، ومن مختلف طبقات الهيئة الاجتماعية. جمعت مادته من كتب تاريخية وأدبية تقرب من أربعين مؤلفاً، بالإضافة إلى ما أخذته من مقالات تؤيد تقدم المرأة وتدعو إلى تعلُّمها. وقد ذكرت في مقدمة الكتاب المصادر التي جمعته منها، واستندت إليها في تأليفه.

قدمت في كتابها «الدر المنثور» أمثلة ونماذج نسائية من مختلف بلدان العالم، ومن مختلف العصور التاريخية، بعضهن تسلم مقاليد الحكم وإدارة الدولة، وساهمن في صنع القرارت الهامة، وحشد الجيوش، وخضن المعارك والحروب... إلخ.

ويعتبر هذا الكتاب من أشهر الكتب القديمة كمصدر معتمد، لكل من يؤلف في موضوعه. وقد ابتدأت زينب بتأليفه في السابع من تشرين الأول عام ١٨٩١م، وصدر عام ١٨٩٣م وقد شاركت به في المعرض الكولومبي عام ١٨٩٣م.

وقد امتدح هذا الكتاب عدد من كبار أدباء وأديبات عصرها، أما هي وشعوراً منها بالاعتزاز بما أنجزته، فكتبت على غلاف كتابها، هذين البيتين من الشعر:

كـــتـــابي ، تبـــدَّى جنة في قـــصـــورها

تـروح روح الـفـكـر حـــــور الـتـــــراجـم

خـــــدمـت بـه جـنـسـي الـلـطـيـف وإنـه

لأكـــرم مـــا يهـــدى لـغـــرِّ الكـرائـم

تقول د. بثينة شعبان في كتابها «مائة عام من الرواية النسائية العربية» ص ٥١ : (ويجب اعتبار عمل زينب فواز «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» علامة فارقة أساسية في تاريخ الأدب النسائي بشكل عام، وتاريخ الأدب النسائي العربي بشكل خاص، حيث وثقت في هذه الأنتولوجيا ﴿مقتطفات أدبية مختارة﴾ الهامة لأربعمئة وست وخمسين امرأة من الشرق والغرب من التاريخ القديم والحديث. وهي تقدم سيرةً ذاتيةً للمرأة ومن ثم تقدم أعمالها ومساهماتها في الحركة الأدبية أو السياسية أو الاجتماعية. ويبدو من بيتي الشعر اللّذَيْنِ يظهران على غلاف الكتاب أن فواز قد أقدمت على هذا العمل الضخم من أجل خدمة النساء وقضيتهن. وقد صممت على كتابة تاريخ النساء، وتنظيم سجلات لمساهماتهن في مختلف المجالات حيث تقول زينب: «ظهر كتابي كجنة من قصورهن ليقدم أفضل النساء المفكرات من الشرق والغرب، وقد قمت بذلك خدمة لبنات جنسي وأعتقد أن هذه أفضل هدية للسيدات الفاضلات». وإن هذا الكتاب الذي هو نتاج باحثةٍ ملتزمةٍ، وذات رؤيةٍ تحررية، غير موجود إلا بنسخ نادرة في مكتبتين أو ثلاثٍ في العالم العربي).

قالت عائشة التيمورية في تقريظها لكتاب زينب فواز «الدر المنثور»:

سـجـدَتْ لعـزَّةَ بالبطيح فـحـولُ ... لمّا تحلَّى جـيـدُها المصـقـولُ

لمعَتْ لآلي العـقـدِ تزهو نضـرةً ... كـصـفـا الجبينِ راقَ فـيـهِ شـمـولُ

دعني ومـا التـقطوهُ من بحـرٍ طمى ... فـمن ادّعى طبق القـيـاس جـهـولُ

هذا هو الدرُّ الذي غــواصه ... بعـزيز آيات الثنا مشمـول

إذ ذاك من صـدف وهذا جـوهر ... لفظتـه أذهانٌ ذكت وعقـول

درّ كـدريٍّ زهـت أنـواره ... يشـهـد بهـا المعقـول والمنقـول

هنّوا ذوات الخـدر بالفـوز الذي ... يعلو على سـحب البـهـا ويطول

ولقـد علت طبـقـاتهنّ وزانهـا ... بتـفـاخـر بعـد الخمـول قبـول

طبـقـات منثـور بريق ضـيـائهـا ... كـشـعـاع شـمس بالسـها موصـول

كم أمطرت غـيث الدمـوع بقـولهـا ... تاج الفـخـار وهل إليـه وصـول

نالت سـواعـد عـزها مـا لم تكن ... رؤياه في سنة الكرى مـأمـول

لله درّ طبـاق زينب أصـبـحت ... بـدراً لـهُ بـين الأنـام هـلـول

مـذ أسـفـرت عن أصل جـوهر عـفـة ... قـد كـان قـبل سطورها مـجـهـول

فـعلى العـفـيـفـات الثناء لفـضلهـا ... مـا جـدّدت في العـالمين فـصـول

عـائشة عـصمت

التيمورية بمصر

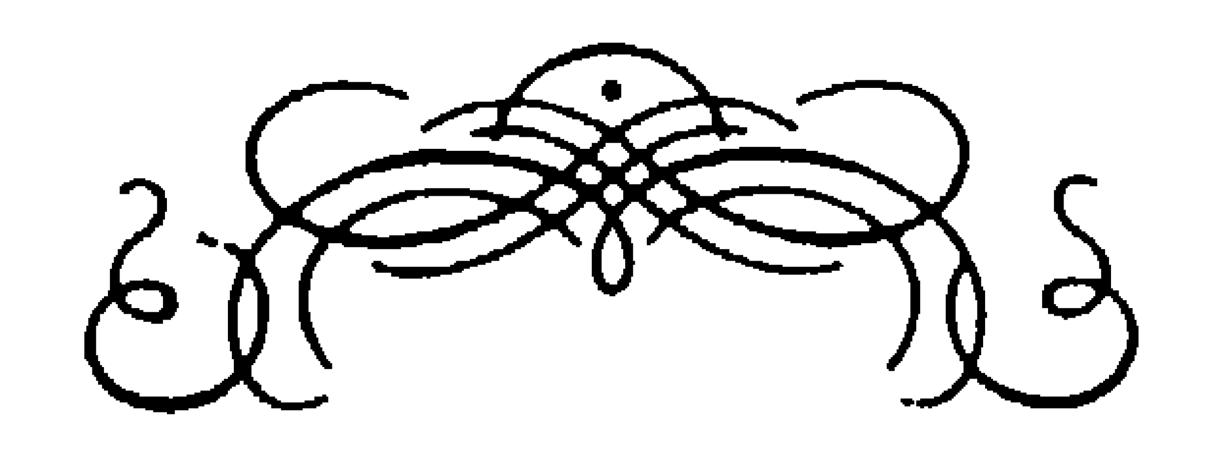
وجاء في تقريظ الأديب الفاضل والكاتب الشهير حسن حسني صاحب جريدة «النيل»:

أحطتُ خبراً بمجمل هذا الكتاب الجزيل الفائدة، الجليل العائدة، النبيل المقصد الشريف المبدأ والغاية، فألفيته سديد المآل ثمين المضمون عالي الأمل مبرور العمل، جمع إلى رشاقة الأسلوب لطف المفاد، وضم إلى حسن السياق والترتيب جمال العبارة وكمال التركيب، فجاء اسمه (الدر المنثور في تراجم ربات الخدور) عنواناً على مسماه، متجلي عرائس الأفكار في أعالي قصور الاعتبار، متحلي السطور بجواهر المعاني، مسترق أحرار الأذهان برصانة هاتيك المباني. فقد اشتمل

على تراجم العدد العظيم من ربات الخدور وسيدات القصور وأميرات العصور، على سياق غير مسبوق المثال في متقدمي الأجيال. فسبحان من وفق ووهب وأقام للسيدات ظهيرة فضل وأدب. والحق أحق بأن يقال ويسمع، إن هذا الموضوع من أهم ما يجب أن يعتني به العالم المدني، لاشتماله على قسم عظيم من تراجم شهيرات نصف العالم البشري. وهنّ القيم الوحيد على تربية الملكات الأولى، والشريك الأمين في الأعمال الحياتية. وناهيك ما هنالك من الأهمية التهذيبية، التي تستفاد بتداول مثل هذه الآثار النفيسة، خصوصاً وقد قامت بأداء هذا الواجب حضرة المصنفة الفاضلة البارعة الكاتبة الشهيرة ذات العفاف السيدة زينب فوّاز، فجادت وأجادت في هذا الكتاب بما يروق ذوي العقول ويشوّف أرباب الألباب. ولا غرابة فإنها ربة الفكر والقلم اللذين طالما زينا الأوراق، وطارا بجناحي شهرتها الفاضلة في الآفاق، وسابقا الشمس في السير والإشراق. فنثني على هذه السيدة الثناء الجزيل، ونشكر مسعاها المثيل بكل لسان شكر جميل. فلا برحت زينة العلم والأدب، ولا زالت مشكورة الأيادي العالية عند كل من قال وكتب:

بدا درُّها المنثور بالفضل زينب	فيا حبَّذا الدرّ النثير المرتب
جلت لعيون الفكر آثار حكمة	عرائسها تزهى وبالفضل تخطب
حكى الفلك الأعلى فكل صحيفة	به أفق فيها من الزهر موكب
حوى حسنات الدهر بين سطوره	وقوّمها ذاك اليراع المهذب
فلا برحت للفضل بالفضل زينب	تقول مقال الفاضلين وتكتب

وسننشر في القسم الأخير من الكتاب نماذج مختارة مما كتبته زينب فواز، عن نساءٍ اشتهرن في عصرهن، في كتابها «الدر المنثور».



روايــــة

حسن العواقب

او

غـــادة الزاهرة

تاليف

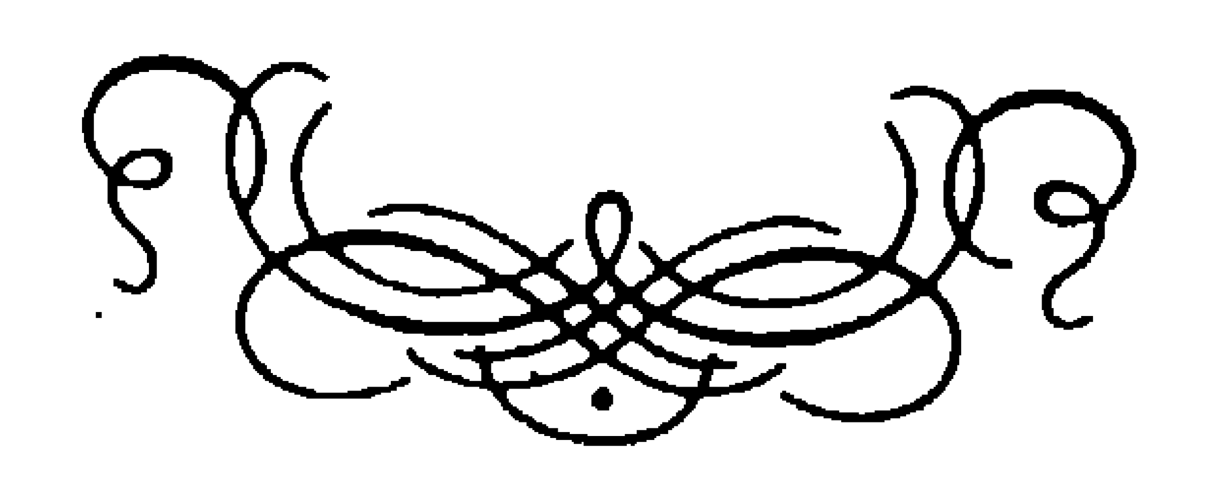
حضرة الكاتبة الفاضلة الأديبة الكاملة نادرة زمانها
وفريدة عصرها وأوانها

السيدة

زينـــب فـــواز

الطبعة الأولى

طبعت في مطبعة هندية بشارع المهدي بالأزبكية
سنـــة
١٣١٦ — ١٨٩٩



حسن العواقب أو غادة الزهراء

هي أول رواية عربية ، صدرت في طبعتها الأولى عام ١٨٩٩م، حسب المعلومات المتوفرة، وكما جاء في مقدمة السيدة فوزية فواز، في الطبعة التي حققتها ونشرها المجلس الثقافي للبنان الجنوبي عام ١٩٨٤م. غير أن الكاتب المصري حلمي النمنم يقدم في كتابه «الرائدة المجهولة زينب فواز» معلومات جديدة، عندما يقول: (أن زينب فواز أصدرت أول رواية بالعربية المعاصرة «حسن العواقب أو غادة الزهراء»).

صدرت طبعتها الأولى في آب ١٨٩٢م، ولكن يبدو من المقدمة، أنها كتبت قبل ذلك، إذإنّ هناك قصيدة شعرية، في مدح تلك الرواية مؤرخة عام ١٨٨٥م. وهذا يعني أنها سبقت رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل بأكثر من ربع قرن، ويضيف النمنم: (أن مطبعة هندية بالأزبكية أصدرت عام ١٨٩٩م، طبعة من هذه الرواية).

ويذكر النمنم المصدر الذي استند إليه، ويؤكد صحة معلوماته، وبذلك تكون زينب فواز أنهت روايتها عام ١٨٨٥م، وأصدرتها بطبعة أولى في آب ١٨٩٢م، وفي طبعة ثانية عام ١٨٩٩م، ثم أصدرها المجلس الثقافي للبنان الجنوبي محققة عن الطبعة الثانية عام ١٩٨٤م.

ورواية «حسن العواقب» المؤلفة من سبعة وثلاثين فصلاً، هي أول رواية عربية لها طابع سياسي واجتماعي، ذات مغزى خلقي، تمثل عادات وتقاليد وطبائع بعض عشائر جبل عامل في القرن التاسع عشر، وقد وصفتها بالشجاعة والشهامة. وتكشف عن المناخ السياسي وانعكاساته الاجتماعية.

وعبرت زينب فواز في مقدمة روايتها عن فهمٍ عميق لعناصر الرواية ومهمتها، حيث قالت: (وبما أن الروايات الأدبية هي أهم نوع من الكتابة تعكس فكر المرء وتفيد وتمتع).

تروي «حسن العواقب» قصة صراع يدور بين أميرين من أبناء العم، من أمراء جبل شامخ هما شكيب وتامر، من أجل الفوز بإمارة الجبل، وتولي زمام الحكم فيه، وتنافسهما على حب ابنة عمهما الأميرة فارعة.

كان تامر أكبر أبناء العم سناً وأعظمهم مكراً ودهاءً وخبثاً، وقد رأى أن عمه يعتمد على شكيب (الذي يتمتع بسمات أخلاقية جيدة) في جميع أموره، فقرر أن يوقع به قبل وفاة العم كي لا يتولى الحكم من بعده، فهذا الحكم من حقه لأنه الأكبر سناً، ووصية جده تنص على أن الحكم للأرشد.

وفي الفصل الأول يبدو أن قراراً اتخذ لتولي شكيب الحكم، فيقرر تامر قتله بوساطة أحد أعوانه واسمه طالب.

يبدأ الصراع في الفصل الثاني، حيث يلجأ تامر إلى كل أنواع التآمر، ويدعو مرافقه طالب للقيام بإطلاق النار على شكيب في الوادي، فيصيبه في يده.

ويواجه طالب مقاومةً وتصدياً شديدين من مرافق شكيب، واسمه نجيب، فيلتحم الاثنان في شجار يهرب بعدها طالب، وتبوء المؤامرة بالفشل، ويكمل شكيب طريقه، حيث يعالج، ويلتقي فارعة، ويتبادلان الحب.

وتتوالى الأحداث عبر الرواية، إذ يفشل تامر في خطته، يأخذ قراراً آخر بالزواج من فارعة، وإذ يلقى هذا القرار القبول من أخوي فارعة، فهو ابن عمها وثري وله مستقبل. ترفض هي طلبه لعدم قناعتها بشخصه، ولأنها تحب شكيب.

ويقرر تامر نيل فارعة مهما كلفه الأمر، فيرتب اختطافها مرتين بوساطة أعوانه، ويتم ذلك. ويدور صراع شديد فيهربون بفارعة إلى الجولان ومنها إلى حوران، ومن قبيلةٍ إلى قبيلةٍ أخرى. ويطارده شكيب وأعوانه وتحدث معارك

ومغامرات كثيرة بين الطرفين، ويُلقي رجال شكيب القبض على تامر فكان رحيماً وخلوقاً معه. وينتهي الأمر بلقاء الحبيبين وفرار تامر للآستانة.

نرى في الرواية أن شكيباً ذا السمات الأخلاقية الجيدة والسياسي الشريف، هو أيضاً محب مخلص وأمين، تنسجم مواقفه من الحكم مع علاقته وحبه لفارعة، رغم كل ما تعرض له.

تصرح الأديبة زينب فواز في مقدمة روايتها، بأنها إنما تروي أحداثاً جرت فعلاً(وإني قد تعمدت في هذه الرواية تبديل الأسماء والأشخاص والبلدان تحاشياً من ذكر الباقين منهم على قيد الحياة، حرصاً على شرف البيوت الكريمة التي دنسها بعض أبنائها الذين هان لديهم بذل شرفهم في سبيل نوال شهواتهم).

يذكر الناقد الروائي اللبناني د. عبد المجيد زراقط عن سبق زينب فواز لغيرها في كتابة الرواية العربية، أن: (لهذه الريادة التاريخية على الأقل دلالتها الهامة، ومن واجب كل غيور، وضع الأمور في نصابها، والتعريف بهذه الأديبة المفكرة الرائدة.

فالأديبة والرواية، كلاهما، ومن منظورهما التاريخي، يعطيان فكرةً واضحةً عن حقبة هامة من تاريخنا المعاصر، وهذا العصر بكل صعوباته وتقلباته ووطأته على حياة المرأة خاصة يجعل من زينب فواز وروايتها «حسن العواقب» علامة فارقة في حياة المرأة العربية، وفي تاريخ الرواية العربية).

ويبسط د. زراقط أحداث الرواية، مشيراً إلى أن المؤلفة تدرك أنها تكتب روايةً أدبية، وتعمد إلى أن تحقق لها مزية الواقعية الأدبية، وإن استخدمت وقائع تاريخية، متخذة من وقائع الحياة مادة روائية، صنعت منها رواية ذات بنية خطية تصاعدية متقطعة بالتناوب.

ورأى د. زراقط، أن الرواية تتصف بخصائص القص العربي القديم، قص المغامرات الموكل إلى مراد، يتصف بالكثير من مزايا حكواتي الحكايات الشعبية،

ولكنها مع ذلك حققت تطوراً يقرب بها من الرواية الحديثة، التي تتميز ببناءٍ روائيٍ متماسك، بلغة فصحى معاصرة، فتكون هذه الرواية قد نهضت بأداء وظيفةٍ نهضوية على مستوى الأدب الروائي، والرؤية إلى عالمها واللغة.

ويضيف د. زراقط: (في الرواية، وفي مقدمتها، ما يشير إلى أنها تروي أحداثاً جرت فعلاً في مكان وزمان معينين. ففي بداية الرواية، يدعو الراوي، قارئه ويسميه -رائد سطح الأرض، السائح في فسيح الأقطار ... - ليتجه وإياه إلى سورية وفلسطين ويسرّح النظر في مرتفعات جبل شامخٍ، حيث يجد حصناً حصيناً، ويقول له:

فقف هناك وحوّل نحوه البصرا

واسمع فعن أهله أروي لك الخبرا

وهذا الحصن الذي يوجد في داخله قصر بديع، كما يقول الراوي، قد أحكم بناؤه من عهد هيوسنت أومر، وتفيد المعلومات التاريخية، أن قلعة تبنين بناها هيوسنت أوهوك بن أومر عام ١١٠٧م. وأنّ آل الأسعد جعلوها مقراً لهم، وكانت زينب فواز تقيم في هذه القلعة أيام علي بيك الأسعد، برعاية زوجته فاطمة، ويمكن للقارىء الملم بجغرافية جبل شامخ ﴿جبل عامل﴾ وتاريخه أن يعرف أن الزاهرة هي قرية الطيبة، والجابية هي مزرعة التامرية، وذلك من خلال الوصف وسياق الأحداث، ثم يصف الحصن وأهله، وأهم الأمكنة التي تدور فيها الأحداث، ويكمل القص، فيبدو وكأنه ﴿الحكواتي﴾ الذي كان يحكي الحكايات والسير الشعبية في المقهى، أو المحدّث البارع في مجلس السمر. وهذا يعني وعي المؤلفة تنوع مستوى قرائها في ذلك الزمن، فكل يتلقى بقدر مستواه، وأن المؤلفة تدرك أنها، إنما تكتب روايةً أدبيةً، وتعمد إلى أن تحقق لها مزيّة الواقعية الأدبية، وإن استخدمت وقائع تاريخية، وتهدف إلى أن تحقق هذه الرواية لقارئها المتعة والتسلية والحث على التفكير بالأحداث وتأملها، بغية الإفادة من دلالاتها. ولكل أن يحصّل معرفة بالقدر الذي يستطيعه، فالمعرفة التي تقدّم هنا، ليست تاريخية أو أخلاقية

مباشرة، وإنما هي معرفة روائية غير مباشرة يحصّلها القارىء بقدر إمكاناته، وإن كان من معرفة تاريخية يمكن تحصيلها فهي موظفة في السياق الروائي وليست مقصودة لذاتها).

ويقول د. زراقط: (أن هذه الإشارات التي تفيد بأن الأحداث واقعية بمعنى وقائعية، تجعلنا نظن أن حامداً هو حمد المحمود المعروف بحمد البيك، الذي جدد بناء القلعة في تبنبن عام ١٨٥٤م. وأن شكيباً هو ابن أخيه علي بيك الأسعد، وأن فارعة هي ابنة أخيه فاطمة بنت أسعد الخليل، غير أن هذا جميعه لا يجعل الرواية رواية واقعية أو تاريخية وإنما هي بناء متخيل، مثلت الوقائع فيه المادة الروائية التي صنعت منها الروائية رواية، تتخذ الوقائع مادة لها فتنظمها في بناءٍ روائي ينطق برؤيتها إلى عالمها، وقد استفادت من هذه الوقائع لتضفي على روايتها مزيّة الواقعية).

والميزة البارزة في هذه الرواية هي الاستشهاد بالشعر، يستشهد به الراوي مباشرة أو على لسان الشخصيات، وهو شعر جميل يلائم مناسبة الاستشهاد في الغالب، وهو أيضاً مختار بعناية من ديوان الشعر العربي وربما كان بعضه من نظم المؤلفة، والشعر هنا يأخذ مساحة كبيرة من الرواية، وهذا تقليد يعرفه القص العربي القديم. وهو يتميز هنا عن ذلك الشعر بجودته وجودة توظيفه.

وإن تكن هذه الرواية تتصف بخصائص القص العربي القديم... إلا أنها وظفت مختلف عناصر القص وتقنياته في سياق روائي مسلٍّ ممتعٍ وينطق في مناخ المتعة الروائية، بدلالة كلية، وهي هنا تجسد منظومة قيم الفروسية العربية، والدعوة إلى التمسك بها مهما كلف الأمر من تضحيات، وإن من يخرج عليها ظالماً تصيبه عواقب ما صنع، وذلك يؤدى بلغة فصحى معاصرة.

يقول الأديب د. علي زيتون في قراءة بناء الشخصيات في رواية «حسن العواقب» إنها أول رواية عربية تكتبها امرأة ضمن السياق التاريخي، والظرف التاريخي لحياة امرأة تعيش حكاية في القرن التاسع عشر. ويؤكد د. زيتون من

خلال الرواية نفسها على مؤثرات الحكاية الشعبية في الرواية. فهي واقعية حرفية، تلتزم فيها الكاتبة بتغيير أسماء شخوصها تجنبا لأي تشهير بالعائلة، نتيجة تصرف شرير من أحد أعضائها. وهذا ما وسم الرواية ببساطة التركيب الفني.

ولا ننسى هنا أن الرواية في ذلك الوقت وافد جديد إلى الآداب العربية، وما الذي صنعه الرجال الأدباء في ذلك الوقت حتى نلوم أديبة امرأة اقتحمت هذا المجال لبوساً فنياً لتعبر فيه عن أفكارها، وعن مزايا وسلبيات محيطها ومجتمعها. وحين نتحدث عن رؤية ما، يعني أن نتاج الرؤية ليس المرجعي موضوع الرؤية، ولن يساويها لأن تدخل ثقافة زينب وهمومها واهتماماتها في توجيه رؤيتها وتحديدها. يعني أننا أمام إعادة إنتاج العالم، وأن بناء شخصيات روايتها بناء فني.

وفي ذلك كل الحق، لأن الرؤية الفنية تنتج بناء فنياً ما دام يفترق عن الحكاية الشفوية، بأنه أدب مكتوب. فهو نتاج للفكر والوجدان والتدوين، مما يجعل فيه الخيال محدوداً أو نهائياً لا يمكن أن تعبث به خيالات أخرى.

يضيف د. علي زيتون: (إذا كان الإنسان مركز هذا الوجود الواقعي، فإن الشخصية البشرية في العمل الروائي المتخيل، هي الشرط الأساسي، لوجود ذلك العمل حتى ولو كان البطل فكرة لا شخصاً. كما هي الحال في رواية زراقط «الهجرة في ليل الرحيل» حين جعلت من فكرة التحول نحو مقاومة العدو، بطلاً يمسك بجميع الخيوط ومن ضمنها الشخصيات. أو كما هي الحال في رواية أمين معلوف «سمرقند» التي جعلت من رباعيات الخيام، ناظماً يضبط أحداث الرواية وشخصياتها ويلم شتاتها، إذ لم تمنع بطولة الفكرة من أن تكون الشخصيات شرطاً لا بد منه.

والدخول في عمل زينب فواز من باب الشخصيات، يقتضي أن نأخذ الوضعية التاريخية لهذا العمل بالحسبان. فـ «حسن العواقب» تشكل مرحلة مبكرة لولادة الرواية من رحم الحكاية، ولذلك فهي تحمل الكثير من أمارات أمها. واللفتات المتكررة إلى ما فات الحديث من أمور سبقت أو تزامنت مع حدوث ما

يكون الراوي بصدد سرده، والتي تعد من مقومات الحكاية الواضحة. حاضرة حضوراً قوياً في «حسن العواقب»، والفارق بين شخصيات «حسن العراقب» وشخصيات أية حكاية شعبية، أن بناء الشخصيات الأولى هو نتاج رؤية فكرية على عكس بناء الشخصيات الثانية، الذي هو نتاج رؤية جمعية ممتدة عبر التاريخ. ولئن كان النموذج الثاني خاضعاً للتجديد المستمر بسبب شفويته، فإن النموذج الأول يخص عالم فرد يعبر بعمله هذا ليس عن تدوين حكاية لكي لا تنسى، ولكن عن مرحلة ثقافية تؤذن بإنهاء عصر الحكايات وبدء مرحلة الرواية والكتابة.

ومن يتجاوز مسألة ولادة حسن العواقب إلى دوائر العلاقات التي تنتظمها، يجد داخلها علاقة الرغبة أن العامل الذات - الشخص الذي يرغب في تحقيق هدف ما - يشمل جميع شخصيات الرواية، إذ لا يوجد من لا يرغب، وإن كانت رغباتهم جميعاً تمت بصلة ما إلى الرغبة الأم «أي الحصول على المرأة الجميلة الفائقة الأنوثة، وعلى السلطة». ولذلك فإن العوامل الراغبة كلها تدور في فلك عاملين راغبين أساسيين، هما شكيب وتامر. إذ شاءت الظروف أن تكون رغبة كل منهما الحصول على المرأة نفسها «فارعة» والموقع السلطوي نفسه«حكم الحصن». لقد قادتهما هذه الرغبة إلى صراع لا هوادة فيه بذريعة الأرشدية التي يراها كل منهما لنفسه. وفي كل عصر من هو أعلم وأرشد حقاً؟ ومن يدعيهما زوراً؟ وهذه الثنائية واضحة المعالم في الرواية. لا يخطىء وجودها أي متلقٍ، وإذا كان دافع كل منهما واحداً في الأساس «جمال فارعة وأنوثتها» فيما يتعلق برغبة الزواج منها، وما توفره «السلطة من مكانة وإمكانيات» فيما يتعلق برغبة الحصول عليها. إلا أن محركاً أكثر عمقاً من هذا المحرك الذي يتراءى للعيان، يجعلنا نرى واقعين مختلفين، لا واقعاً واحداً، فتامر مدفوع بشهوة التملك والتحرق إلى الجسد الجميل. وشكيب مدفوع بإيمانه العميق بخدمة شعبه من ناحية السلطة. وبنظرته إلى فارعة بوصفها إنساناً رائعاً.

لقد جسدت هذه الشخصيات جواهر نفسية، ومنذ الصفحة الأولى لم تحد عن مقتضياتها إلى آخر صفحة كان فعلها نتاجاً طبيعياً لهذا الجوهر، حتى إنَّ تامراً الذي منيّ بالفشل بعد الفشل، لم يثب إلى رشده، ولم يرعو حتى بعد أن ضاقت الأرض به، ففر إلى الآستانة، حيث حاول الإتصال بحكامها محرضاً إياهم ضد شكيب من غير أن يتخلى عن مكره ودهائه وخبثه لحظةً واحدةً على امتداد الرواية. وهذا النوع من التعامل مع الشخصيات أمر طبيعي. وما كان بامكان زينب أو جيلها تخطي هذا الحد إلى مستوى آخر تكون الشخصية فيه نتاجاً للفعل لأن النظرة التي كانت سائدة تقوم على اعتبار الشخصية كياناً مكتملاً متماسكاً، وذلك قبل أن تحدث القفزة النوعية في العلوم الإنسانية التي شهدها مطلع القرن العشرين، خصوصاً في مناهج الفلسفة وعلم النفس التي امدت الروائيين بما لم يكن متوفراً لأسلافهم من فهمٍ للشخصية وتعقيداتها وكيفية تكونها ونمائها.

ويجعلنا هذا نستنتج أن الكتابةالتاريخية والحكاية قد فعلتا في رواية مرحلة زينب فواز، ويبقى السؤال، ما المسافة التي قطعتها أديبتنا مع الرواية؟.

تتطلع «حسن العواقب» إلى نفي التاريخية عن نفسها، وخوف زينب من أن تمس الأسماء الحقيقية للأشخاص والبلدان، أسرة عزيزة على قلبها، يعني أن الهم التاريخي لا يؤرقها. ما يؤرقها أفشى العنوان به، فهي تهدف إلى دورٍ تهذيبي أخلاقي، يعني أنها تنتظر من عملها أمرين: المتعة والدرس الخلقي وإذا كان كل من التاريخ والحكاية يؤمن هذين الأمرين بشكلٍ من الأشكال، لا يبقى أمامنا إلا أن نقول: بأن الكتابية هي علامة هذا العمل الفارق. والكتابية ليست أمراً يسيراً، إنها نقطة البداية التي لا بد منها. كتبت زينب حكايةً فجاءت برواية سوف يتولى الزمن تهذيب سلالتها وصولاً إلى الرواية الحديثة).

تقول د. بثينة شعبان: (في مركز هذه الرواية نجد أهواء تامر الأنانية والتي تمثل صفةً تاريخية في تواريخ الأسر الحاكمة، أو المخولة أن تحكم في العالم العربي.

وطوال التاريخ العربي كان هناك أشخاص يتمثل هدفهم الأساسي في - الأنا - الذاتية بأضيق أبعادها، حتى دون أخذ مصالح أفراد العائلة الآخرين بعين الاعتبار، ناهيك عن مصلحة المجتمع والوطن. وتعكس الرواية من وجهة نظر سياسية الأسباب الحقيقية الكامنة وراء المصائب السياسية التي حلت بالعرب خلال تاريخهم الطويل: التنافس الشخصي والحسد والغيرة والمصالح الأنانية الضيقة، والتي كانت مسؤولة غالباً عن كوارث سياسية كبرى حلت بالعالم العربي في تاريخه البعيد والقريب).

المرأة في رواية زينب فواز:

تذكر د. شعبان: (من اللافت للنظر في هذه الرواية المبكرة، هو أن النساء يشكلن عناصر هامة في مجتمعهن، ويفهمن اللعبة السياسية جيداً، ويتخذن مواقف حازمة، ويعبرن عن مشاعرهن بصراحة وحزم، ومن خلال تبادل رسائل الحب بين شكيب وفارعة، نكتشف أن فارعة تقدر مواقف شكيب السياسية وهي ليست خجلة أو متحفظة في التعبير عن مشاعر الحب والإخلاص له. وحين تستلم فارعة على سبيل المثال، رسالة من ابن عمها شكيب، ترسل جواباً فورياً لرسالته معبرة عن مشاعر حبها له وشوقها إليه، حتى إنها كتبت له قصيدة تشكو من مشاعر الحب الملتهبة في قلبها وذهنها. ،من ناحية أخرى فإن عائلة فارعة لم ترغمها على الزواج من تامر مع أنه ابن عمها ويتمتع بمزايا سياسية ومادية كبيرة، وفي كل مرة تقدم تامر لخطوبة فارعة، كان جواب والديها أن لها حياتها، وعليها أن تقرر بنفسها. وتنتهي الرواية بانتصار البطل الشريف والأمين وهزيمة ابن عمه المتآمر تامر.

تظهر النساء في هذه الرواية ظهوراً متميزاً أيضاً، باتخاذهن المواقف السياسية الصحيحة، كما يبرهنّ على أنهن مقاتلات عنيدات، من أجل ما يقتنعنُ به ويشعرن أنه لصالحهن. ورغم كل إغراءات المركز والحياة الرغيدة وموافقة الأهل، بل وتشجيعهم، ترفض فارعة الزواج من تامر، وتبقى مخلصة لحبها من شكيب. مع

أنها مرت بفترات طويلة صعبة، وعانت من صعوبات بالغة، وفقدت الأمل برؤية شكيب مرة أخرى. والمهم هو أن النساء لا يظهرن في الرواية شخصيات هامشية، بل يلعبن دوراً فاعلاً في مركز الحدث، وعلى المستويات العائلية والاجتماعية والسياسية.

وإذا أردنا اعتبار عنصر القص في المحاولات الروائية المبكرة في الأدب العربي، فلا شك أن هذا العنصر موجود هنا، ويجب تقييم هذه الرواية في إطار ما كان متوفراً في الأدب العربي في ذلك الوقت، وليس بالمقارنة مع روايات جين أوستن وجورج إيليوت. بل يجب تقييمها بالمقارنة مع روايات إبراهيم اليازجي وسليم البستاني والتي كانت مزيجاً من المقامة والقصة، ومن الأدب والطب والجغرافيا.

وليس من المنصف أيضاً مقارنة هذه الرواية مع الروايات الغربية، التي لها تاريخ مختلف وثقافة مختلفة وجو مختلف وجمهور مختلف أيضاً.

وإذا قرأنا هذه الرواية في الإطار الأدبي لزمانها نكتشف فوراً ما اكتشفه نقاد زينب فواز وقراؤها المعاصرون لها، أنها موهبة نادرة ورائدة في كتابة هذا اللون الأدبي بالذات).

وقد امتدح مزايا هذه الرواية أدباء معروفون في ذلك الوقت أمثال الشيخ محمد عبده، ونصحوا بقراءتها لأنها تمثل الاتجاهات الإصلاحية التي دعوا إليها أو نادوا بها.

كما كتب رئيس تحرير جريدة «النيل» حسن حسني تقييماً لرواية «حسن العواقب»، حيث قال: (قرأت رواية «حسن العواقب» للكاتبة الشهيرة زينب فواز، التي لا توازي شهرتها شهرةً، وذلك لفكرها النير وقلمها المبدع، فوجدت الرواية تتمتع ببنيةٍ جيدة ومواضيع بعيدة المنال ومزايا أدبية جميلة، فلا غرو أن تجود على العالم الأدبي العربي بأمثال هذه النفائس الغالية والآثار العالية، فقد عودت العالم العصري المصري بكثير من هذه المآثر ذات المفاخر. نأمل أن تستمر كاتبتنا بمنح

عصرنا الحاضر مثل هذه الكتابات الأدبية القيمة) . كما كتب قصيدة يمتدح الرواية جاء فيها:

روايـة إبـداعٍ أجـــــــادت وجــــــــودها
براعـــة فـــخـــر الفـــاضـــلات الكواتب
زهت بمعـــانٍ لطفـــهـــا في كـــتـــابهـــا
برقـــةٍ مـــوضـــوعٍ وأســـمى مطالبِ
ترى العين فـــيـــهـــا وجـــه كل براعـــةٍ
وتـســمــو لهـــا الأفكار من كل جـــانب
فـــلا برحت تهـــدي المعـــارف زينب
هـدايـا المزايـا فـي أعـــــــالـي المراتـب
ولا زال هذا العـــصـــر منهـــا ممتـــعـــاً
بخـــيـــر مـــباديهـــا (وحـــسن العـــواقب)

كما كتب الشاعر عبد الله فريج قصيدة يمتدح فيها رواية زينب فواز، مشيراً إلى السمعة الأدبية التي حققتها هذه الرواية، ليس فقط في مصر، بل في البلدان العربية المجاورة إذ قال:

لعـــمـــرُك إنَّ العلمَ خـــيـــرُ المكاسبِ ذووه بـه يـر قَـــــون أعـلـى المراتـبِ
بإحـــرازهِ كـم فـــاقَ في الناسِ يافَعٌ على كل كـــهـلٍ في أجلِّ المناصبِ
وكم غـادةٍ حسناءَ أضحتْ بخـدرها تُبـــاري به أهلَ اللِحى والشـــواربِ
وحـــســبُكَ فـــيـــه ربة الخـــدر زينبٌ فـريدةُ هذا العـصـر خـيـرُ الكواعبِ
كـــريمة فـــواز هي الغـــادةُ التي حـــبَـــاها إلهُ العـــرشِ عـــز المناقبِ
لنا أنشـــأَت عن فـــضلٍ ربٍ روايةً يقـصـّــرُ عن أمـثـالِـهـا كلُ كـــاتِبِ

فأكرم بها من مُلحة ذات بهجةٍ ... بآيات سحرٍ للقلوب جواذب

بها حِكَمٌ لو شام لقمانُ بعضَها ... لقالَ وربِ البيتِ: يا للعجائبِ

كَدُرٍّ بهيٍّ في عُقودٍ منضَّدٍ ... له حَسَداً ترنو عيونُ الكواعبِ

معانٍ لعمرُ الحقِ تلعب بالنُهى ... وتزري بهاتيك الظباءِ الرباربِ

فبالمدحِ ما قد خصها غيرُ صادقٍ ... وما عابَها من جهلهِ غيرُ كاذبِ

لربتها منا ثناءٌ معطَّرٌ ... وذلك فرضٌ واجبٌ أيُ واجبِ

مخدَرةٌ من خيرِ قومٍ وأمةٍ ... سليلةُ مجدٍ من كِرامِ الأعاربِ

تحلتْ بأخلاقٍ أرقَ من الصَّبَا ... وأوصاف أملاكٍ فسُبحان واهبِ

وقد أُرضِعتْ ثديَ العلومِ فأصبحتْ ... تصوغ لنا در النُهى في قوالبِ

تآليفُها عمّتْ بلادَ مشارقٍ ... وذاعتْ بفخرٍ في جميع المغاربِ

فللَّهِ آدابٌ بها قد تفردت ... ولله أفكار كشهبٍ ثواقبِ

حبتْنا من الفكرِ المنيرِ بتحفةٍ ... وكنزٍ ثمينٍ من أجلِّ المطالب

ولما ازدهت بالطبع في أفق حسنِها ... كروضٍ جنينا منه خيرَ الأطايبِ

ترنَم عبدُ الله يشدو لصحبِه ... ونادى بتاريخين كلَ الحبائبَ

تهنَّوا ذوي عزٍ بطيبِ روايةٍ ... تجلَّت لنا زَيِنًا بحسنِ العواقبِ

وكتب الشاعر محمد توفيق مديحاً في الرواية، قال فيه:

من أنكر وجوب تعليم ربات الخدور فليمتع نظره بهذا السفر المسطور، فإنه دلالة لا تمنع، وبرهان لا يدفع. حيث قام الدليل على صحة دعوى التعليم، وفوق كل ذي علم عليم. إذ جاءت هذه الرواية طيبة الغاية في البداية والنهاية:

أعقودُ درٍ في جيادِ الخُود[1] تزهو فتظهرُ في صدور الرُود[2]
أم تلك أضواءُ الصباحِ أتتْ بها شمسُ الفضيلةِ في سماءِ زَرودِ[3]
أم تلك آياتُ الطروسِ تبرَّجتْ لتشد أزرَ الفضل بالمورود
جاءَت ترتلُ مِن حديثٍ قد زها سورَ البهاءِ بموكبٍ وبنودِ
وتلتْ على آذانِ ما قد فصَّلَتْ رسلُ الفصاحةِ في بني منشودِ
وجلَتْ محاسنَ ما جلت عصرَ الذي زانتهُ زينبُ في بَهَا وسعودِ
سترتْ محاسنَها ولكنْ قد بدتْ منها البراعةُ في جلاءِ صُعودِ
إن كان خلفَ الخِدرِ ظَلَّ مقامُها فلها السناءُ بفارسٍ وهنودِ
جاءَت مباديها بحسنِ عواقبٍ وأتت أحاسنُها بلا مجهودِ
جاءَت بما فاقَ اللواتي قبلها فأقمنَ في حِلٍ من المعقودِ
روَّحتُ فكري في تلاوةِ أسطرٍ جاءَت بمثل اللؤلؤِ المنضودِ
فعلمتُ من بكرِ المقالة أنها تعتاضُها عن ابنةِ العنقودِ
سكرتْ بها الآمالُ حيث سرورها يجلو عناءَ متيَّمٍ مكدودِ
لا زالتِ الأفكارُ ترقبُ منةً من زينبٍ لتجودَ بالموجودِ
فلزينبٍ حسنُ العواقب زينتْ كعقودِ درٍ في جيادِ الخُودِ

كما كتب الأستاذ محمد علي غالب نجل علي غالب ناظر الحربية سابقاً، قصيدةً جاء فيها:

---

(١) الخود: مفردها الخُود: المرأة الشابة.

(٢) الرود: أصلها الرؤد: الشابة الحسنة.

(٣) زرود: اسم مكان في شبه الجزيرة العربية.

هذي لآلىءُ أم كواكبْ بسنائها ظهرتْ عجائبْ
أم ذا كتابٌ نورهُ ضاءَ المشارقَ والمغاربْ
لا غروَ أن عجبتْ به مصرٌ فكمْ فيه عجائبْ
أهدته سيدةٌ لها الـ فضلُ العميمُ أجلُّ طالبْ
حُسنتْ مباديها بهِ فزهتْ بها حسنُ العواقِبْ

ويمكن القول إنَّ ما كتب عن فواز وروايتها، أكد أنها كانت كاتبة هامة جداً في عصرها، وأنها كانت تعيش في مركز الحركة الأدبية في ذلك الوقت.

وإنه لمن المفيد جداً اقتطاف الفصل الأخير من الرواية، للدلالة على أسلوبها، وطريقة تفكيرها. وبنائها الروائي باتجاه خدمة الأهداف النبيلة، وتجسيد المشاعر الوطنية، وتدعيم الأخلاق الحميدة.

الفصل السابع والثلاثون من رواية زينب فواز «حسن العواقب»:

ولما سمع الأمير عزيز بوجود شقيقته ومجيئها إلى محطة الجيش، انتعش فؤاده، وجلس في فراشه. وكان الأمير حمدان بجانب سريره يلاحظه، مخافة أن يطرأ عليه من تأثيرات الفرح ما يوقعه في عطب. وبينما هو يشاغله بالحديث والمنادمة، إذ بالموكب دخل بين الخيام. ولاحت منه التفاتة، فرأى أخته خرجت من الهودج محمولة على أيدي الرجال. فهب من فراشه، ونهض على قدميه، ومشى، كأنه لم يشعر بشيء من آلام الجرح، وتخطى الخيام، إلى أن اقتبل شقيقته تجاه الصيوان المعد لها، فاعتنقها واعتنقته، وقبلها وقبلته، وأخذهما البكاء فبكيا وتشاكيا. ثم حمدا الله وأثنيا عليه، وبعد ذلك جلسا بجانب بعضهما، وأخذ يسألها عما صادفته في سفرتها، وهي تقص عليه ما لاقت من أهوال الشدة في غربتها. وكان شكيب يسمع حديثها الرقيق، ويشاهد جمالها الجاذب للقلوب،

فيشعر بلذة لا تعادلها لذة في هذه الحياة الدنيا. وبينما هم كذلك. إذ بثابت قد أتى وأخبرهم بأن رؤساء مقاتليهم يستأذنون في الحضور والاجتماع بحضرة الأمير شكيب. وآن الغالب على الظن، أنهم يطلبون الصلح. قال شكيب: ومن أين علمت ذلك يا ثابت؟ قال: يا سيدي، إني قد رأيت طالباً في وقت دخول الموكب، ولم يخف علي رغماً عما اتخذه من الزي واللباس المزور. رأيته، ولكني ما أدركته. ولو أني أدركته، لكنت قبضت عليه. مع ذلك، فآني تتبعت خطواته، إلى أن دخل بين خيام الأعداء، ورأيته دخل خيمة تامر. ولبثت بالقرب من المضارب، إلى أن جن الليل، وأسدل الظلام سدوله، دخلت بين المضارب والخيام، واختلطت مع الحاشية، وصرت أسترق السمع، عساني أفهم ما يكون بين تامر وطالب، فلم يتسن لي شيء من ذلك، ولما عزمت على الرجوع، قابلني أحد الخدم، وأخبرني بأن تامراً قد هرب، ولم يعلم أحد بوجهته، وأنَّ رجاله ما زالوا موجودين. فقلت في سري، هرب إلى حيث ألقت. قال الخادم: وبلغني أيضاً أن الأميرة فارعة قد وصلت إلى محل قومها، ولكني لم أصدق هذا الخبر، لأني كنت أعلم أنَّها عندنا في الحي. على أني سمعت أخيراً أنها فقدت من بيت الأمير من مدة غير يسيرة. وفهمت أيضاً أن الأمير جمع قومه وفاوضهم بأمر الصلح مع أمير جبل شامخ، على الشروط التي يختارها، فأجابوه لذلك، لاعتقادهم بأننا لا قبل لنا على مقاومة الجبليين، سيما وقد انضم إليهم نصف عربان حوران، فضلاً عن شجعانهم. وأنهم عقدوا مجلساً لهذه الغاية. وهنا انتهى الحديث بيننا، وتركته، ثم جئت لأخبركم بالخبر. ففرح الأمير شكيب، وجميع الحاضرين، وقالوا: قد بلغنا ما كنا نرجو، فلنرجع إلى أوطاننا، ونقيم الأفراح. وتامر نبحث عليه[1] فيما بعد، ونعامله بما يستحق. وبعد ذلك جاء مسيلمة وأكابر قومه، وعقدوا الصلح بينهم وبين الأمير شكيب، واعتذر مسيلمة عما بدر منه بحجة المحافظة على الدخيل،

---

(١) والصحيح عنه.

وكان الأمير حمدان هو المتولي أمر المعاقدة وترتيب المعاهدة، وقد تعهد بنو خالد بتأدية التعويضات والخسائر ، ودفع دية من قتل من الجبليين أثناء المحاربة، وكتبوا بذلك سنداً يُصادَق عليه من الطرفين، وبعد ذلك دعاهم مسيلمة إلى ضيافته، ولبثوا عنده ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع ، طلب الأمير العوني من الأمير شكيب أن يأذن له بالسفر إلى العونية، لأنه يريد أن يستخلص أمواله من قبائل الدروز، بأن يرجع إليك جميع ما أخذ من قصرك. وهو صديقي، ولا أخاله يخالف لي أمراً، وأنت، وإن كان صدق حبك لي ولأخيك صادق، جعلك أن تكتم[1] عنا هذا الأمر، ولكن سميرة أخبرتنا به. ومن ذلك الحين، كتبت إلى الشيخ نجم الإبراهيم زعيم طائفة الدروز. ولابد أن يكون الرسول قد رجع بالمال إلى العونية. فشكر له العوني حسن التفاته، والتمس منه أن يكون الطريق على العونية، وأن يشرفه بشرف ضيافته، فأجابه الأمير شكيب إلى ذلك. ثم أمر الجيوش بالتأهب، فتأهبوا جميعاً، وركبوا، وساروا يحتاطون بهودج فارعة، وقد أنفذ شكيب البشائر إلى الحصن. ولما وصل الخبر إلى والدته بقدومه سالماً غانماً، ومعه فارعة، باشرت بإعداد الزينة للفرح، وكانت كما قدمنا، ذات همة عالية في تدبير الأمور المهمة، فاستحضرت كل ما يلزم من المهمات الداخلية والخارجية . وكان أعظم مساعد لها في ذلك خالد، شقيق فارعة الصغير، وسالم أخو تامر، لأنه كان انضم إلى شكيب بعد أن رأى من خيانة أخيه. وقد أحله شكيب لديه محلا حسناً، وغادره مقيماً في القصر، ولم يشأ أن يرافق شكيباً لكيلا يقال أقدم على حرب أخيه. ثم إنَّ والدة شكيب أنفذت خبراً إلى والدة فارعة في الزاهرة، تبشرها بقدوم كريمتها بالسلامة، وتدعوها إلى وليمة الزفاف مع من تشاء من أهل الزاهرة، وتوصيها بأن تصلح شأن أنيسة، وتحضرها برفقتها، لتكون وليمة الزفاف عمومية. ثم أنفذت من قبلها رجالاً يأتون بالتجلة والاحتفال.

---

(١) والصحيح جعلك تكتم.

أما شكيب ، فكان كلما وصل إلى محل في طريقه ، يضيفه أمير ذلك المحل ، إلى أن بلغ أراضي جبل شامخ ، وبرفقته جميع الأمراء ، ومن جملتهم طلال . فانه عقد العزم على أن يترك حوران ، ويسكن الجبل معهم حباً بالتقرب إلى الأمير شكيب ، وعدم البعد عنه . وكانت والدة فارعة لما أخذت بشرى مجيء بنتها سالمة ، داخلها من السرور ما كاد يذهب بعقلها ، ونزعت عنها لباس الحزن الذي كانت تسربلت به منذ انقطعت أخبار بنتها عنها . ثم أصلحت شأن أنيسة ، وهيأت لها موكباً لا يقل عن موكب فارعة إلا بشيء يسير ، وزفت من الزاهرة إلى الحصن بغاية ما يكون من الأبهة والإجلال . وعند وصولهم ، خرج لا ستقبالهم رجال الحصن ، ودخلوا في يوم ما سبق له مثيل في زمن من الأزمان . وبعد يومين من وصولهم ، وفدت طلائع المبشرين بوصول الأمير شكيب . فخرجت القرية لاستقبالهم ، وغصت الطرق والأودية بالناس ، بحيث ان كانت تلك السهول ملآنة بالرجال والنساء والأطفال . ولما أقبل الموكب ، تهللت الوجوه ، وزغردت النساء ، وقام الضجيج ، وعلت الضوضاء . فكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً له في تاريخ تلك البلاد ، ذكرا تتناقله ألسن الرواة على ممر الأوقات . ولما وصل الركب إلى البلد ، ترجل الأمير شكيب ، ودخل على والدته وبجانبه فارعة وعزيز وسميرة . فلما وقعت العين على العين ، ومنّ الله بنعمة اللقاء على الطرفين ، ارتفعت الأصوات بالمسرة والاستبشار ، وعنت الوجوه ، وخشعت الأبصار . ولا تسل عما حصل في تلك الساعة التي مثلت حالة الاحباء ، وما فعلت بهم مرارة النوى ، حينما ذاقوا حلاوة اللقاء . فيا للّه من هول هذا المرأى العجيب ، الذي يعجز عن وصفه لسان كل أديب .

وبعد أن راق الحال ، وشكر كل منهم نعمة الكريم المتعال ، خرج شكيب إلى قاعة الاستقبال ، وصار يستقبل وفود القادمين للسلام عليه . ثم مدت الموائد ، ونودي بالفقراء للطعام ، وقامت الأفراح ، وهتف بشير الأنس بحي على الفلاح .

وما زال الحال على ما ذكرنا من البهجة والرواء، مدة أربعين يوماً، في خلال ذلك عرضت الأميرة فارعة على الأمير شكيب أن يعقد لطلال على الفتاة فاخرة، بنت صديقتها في أول نكبتها، وذلك بناء على ما ظهر من مروءته وصداقته. وللأمير العوني بزهيدة مكافأة له على ما ظهر من حسن خدمته. ففرح شكيب لهذا الرأي، واستحسنه. وفي الحال، استدعى العوني وطلال، وفاوضهما فأجاباه وشكراه، فعقد لهما على الفتاتين المذكورتين، وأفرز لهما محلاً عنده، وأمر بتزيينه وفرشه بأفخر الأثاث والرياش. وحينما انقطعت مدة الاحتفال بالزينة، زفت العرائس الخمس في ليلة واحدة. فكان زفافاً غريب الشكل، عجيب الوقوع، نادر المثال، وقضى كل منهم ليلته على أشهى ما يكون من مجالي الأنس والحظ. فسبحان من لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يخيب فيه أمل آمل.

مــــاسلَّم اللّه ُهو الســــالمُ	ليس كــمــا يزعـــمُــه الزاعمُ
تجــري المقـــادير ُالتي قُـــدِّرتْ	وأنــف ُمــن لا يــرتــضـي راغــمُ

وفي اليوم الثاني، جلس شكيب في ديوانه، واجتمعت من حوله الامراء يهنونه ببلوغ الآمال، والنصر على الأعداء، فشكرهم على صفاء ودهم، وصدق عهدهم، وأمر لكل واحد منهم بهدية سنية، وأمر لسالم أخي تامر باستلام كل ما في الجابية، وسلم له قصر تامر بما فيه. وبعد مضي اسبوع، استأذن كل من الأمراء، بالرجوع إلى أوطانهم، فأذن لهم؛ وقد أسف على فراقهم.

وكان من جملة من سافر من الأصدقاء أيضاً، الأمير العوني، فانه قد أخذ زوجته وسافر بها إلى العونية. وأما والدتها، أي زوجة ابراهيم الراعي، فقد جعلتها فارعة قهرمانة [1] قصرها، ومديرة ادارتها. وبقي ابراهيم المذكور، وولده

(١) كلمة فارسية تعني القيمة على ادارة القصر.

عبد الله وعبد الشكور والد سميرة في خدمة الأمير شكيب، وخصص لهم الجوامك[1] والمرتبات، وأبقى طلالاً عنده من أخص معتمديه، وكذلك؛ صادق ونجيب. فقد أبقاهما عنده، وخصص لهما محلات في قصره. وصار يعتمد عليهما في مهماته، ويشاورهما في كلياته وجزئياته، وأقطع لهما أملاكاً وأراض، وسلمهما مخازن الأغلال والحبوب، وأقامهما مديرين على جميع ما يملك من العقار والأملاك. وهكذا أمضوا حياتهم جميعاً في هناء أبدي، وصفاء سرمدي، وعيشة هنيئة، يغبطهم عليها البادي والحاضر، من الأكابر والأصاغر.

وأما تامر، فقد تفرق عنه ذووه، وهجره محبوه، وأصبح وحيداً يضرب في الأرض، عساه يقع على صديق يشكو إليه امره، ويفشي سره. فلم يجد. ولما أعيته الحيل، وضاق في عينيه فسيح الفضاء، وسدت في وجهه الأبواب، لجأ إلى دار السعادة[2] ولبث بها مدة. وصار يكاتب من بقي من أهله، يتقضاهم المعونة والإحسان، فيعرضون الأمر على الأمير شكيب، فيمدهم بالمال، ويشير عليهم بابداء النصح إلى تامر بأن يرجع عن غيه، ويثوب إلى عقله، وأن يتذكر أعماله الذميمة، وما أفضت إليه آماله الوخيمة، ويعلم أن المرء أحدوثة لمن بعده. وخير الناس من اتعظ بماضيه، وأحسن السيرة في حاضره ليأمن شر آتيه، فيكتبون إليه بما أشار به الأمير، ويوسعونه نصحاً وزجراً، فيتظاهر لهم بالقبول بغية تواصل المدد إليه، وعدم انقطاعه عنه، ويذكر لهم ندمه على ما فرط منه، وان له من توبيخات ضميره، أعظم معنف، وأقوى زاجر، وهم يغترون بأقواله، ويسرون برجوعه عن ذميم أفعاله، ولا يعلمون أنه:

أذا رامَ التَخلُق جاذبتْهُ   خلائقهُ إلى الطبعِ القديمِ

(١) الجوامك كلمة تركية تعني المرتبات.

(٢) دار السعادة – الآستانة – اسطنبول حالياً.

فقد كان يسعى في استغضاب أولياء الأمر في الاستانة على الأمير شكيب، ويفتري عليه أموراً لو لم يكن عدل الله ميزانا في الأرض لا يؤخذ به إلا الفاعل الجريء، لكان نال ما يرجوه من الفتك بشكيب. ولكن العدل الالهي أخذ بناصيته، وظهر لأولياء الأمر سوء نيته، وكذب سعايته. فطرحوه طرح القذاة، ونبذوه نبذ النواة. فلما يئس من نوال الآمال، وقرأ من عنوان الحال نتائج الاستقبال، ضعفت همته، وخارت قواه. ولكن لديه فاعلين[1] يؤمنانه على نوال مبتغاه، هما نفسه الخبيثة وهواه. فلا زال مطيعاً لهما إطاعة العبد، متمسكاً بذنب الأمل، يسأل فيرد، ويطلب فيصد، إلى أن أوقعه الله في شر عمله، وحاق المكر السيءّ بأهله، فمات غير مأسوف عليه:

فـانَّ الذي يبـغي على الناسِ ظالماً   تُصـبْـه على رغمٍ عـواقبُ مـا صنعْ

(١) ولعلها عاملين.

الملك قوروش أو ملك الفرس

رواية تاريخية غرامية، صورت فيها زينب قبح العبادة المجوسية وحسن الوحدانية، جمعت بين الفائدة والفكاهة، فيها سقوط دولة الماديين، وحلول دولة الفرس محلها، واستيلاء الملك قوروش عليها، وعلى مملكة نينوى وبابل، وانقراض هاتين المملكتين العظيمتين واندماجهما في طي مملكة فارس، كل ذلك (بتأثير الغرام، وفتك تلك الأجفان السقام، بقلوب الملوك العظام).

وتعتبر رواية « الملك قوروش أو ملك الفرس » من أحسن الروايات مغزى ومعنى.

الرسائل الزينبية

كتبت زينب فواز في الأدب والفن والسياسة. و « الرسائل الزينبية » هي مجموعة من المقالات التي كانت تنشرها في أكبر الصحف المصرية، تناولت فيها مجمل آرائها في المرأة والدفاع عن حقوقها. كما كتبت في السياسة والمجتمع والفلسفة والدين، وغير ذلك. وفيها ردود على العديد من الكتابات.

طبع هذا الكتاب بناءً على طلبات كثيرة وردت إليها من قرائها، يتمنون عليها أن تجمع مقالاتها في كتاب حرصاً على استبقائها، وهو ما ذكرته في مقدمة كتابها،

حيث قالت: (إن كتابي يشتمل على أبحاثٍ في الدفاع عن حقوق المرأة ووجوب تعليمها، والنهي عن العوائد السيئة، وحضها على التقدم واكتساب العلوم، وما يتعلق بفضائل أخلاق النساء، وما لهن من تأثير على العالم الإنساني).

تقول السيدة فوزية فواز : (مما لا شك فيه أن لدى الكاتبة أكثر مما جمعت بين دفتي الكتاب(٢١٨) صفحة، لا سيما وأنه كُتب على غلافه - الجزء الأول -. وقد رتبت مقالاته حسب تازيخ نشرها في الصحف. وقد قرظ أحد المقرظين له شعراً وتاريخاً وهو قاسم الشامي الأزهري).

وقد نشرت أول رسالةٍ في عام ١٨٩١م، وهو أول صوتٍ نسائي عربي طالب بحقوق المرأة في العصر الحديث وضمن أوسع الحدود التي تسمح بها التقاليد الإسلامية.

تقول زينب فواز في رسالتها الأولى : (أنه مضى وقت طويل وباب السعادة مغلق أمام المرأة في الشرق، وهي آلة بيد الرجل، يسيرها كما يشاء، ويشدد عليها بالحجاب، ويسد أبواب التعليم وعدم الخروج من المنزل وحرمانها من حضور المحافل النسائية العامة).

وتتناول الكاتبة زينب في رسالتين قضيتي الطلاق وتعدد الزوجات، فتقول: (فأما الطلاق المجعول في يد الرجل بلا قيد، فإنه يسلب أمن المرأة، لأنها لا تدري بأي سلطةٍ تضمن البقاء مع زوجها ولو عمرت معه عمر نوح، فتضطر إلى كثير من الخيانة، إن الرجال يجرون الطلاق لأسباب صغيرة ، أو لأقل هفوةٍ، وأما عدم الطلاق فيؤدي عند عدم الامتزاج إلى المضار والعداء في حياة الزوجين).

كما ترى زينب فواز أن تعدد الزوجات وبال على الطرفين، إنه يقضي على المرأة بالغيرة، وهي الطامة الكبرى، وعلى الرجل بنكد الدهر، ويورث الأولاد عداوة بعضهم لبعض، أشد من عداوة الأمهات.

كذلك دعت زينب في رسائلها إلى تشجيع الفنون وفي طليعتها المسرح، لما له من أثر في تهذيب النفوس واكتساب الفضائل والآداب، وتقول في «الرسائل الزينبية» ص ٢٤ : (إن المرأة في التاريخ عملت في السياسة، وشاركت في الحروب، فملكة تدمر وكليوباترا واليزابيت، وغيرهن كثيرات كن نساء قادرات على تلك الأعمال. فالجنسان متساويان، وإنما الإهمال هو الذي جعل المرأة متأخرة متخلفة عن الرجل).

وتقول زينب أيضاً إنه : (ما من أمة انبعثت فيها أشعة التمدن في أي زمان كان إلا وكان للنساء فيه اليد الطولى والفضل الأعظم. الشاهد على ذلك تاريخ العالم، وتاريخ العرب والمسلمين، وكذلك حاضر الأمم المتمدن في أوروبا وأميركا. ويتجلى دور المرأة في التقدم البشري، فيما قامت وتقوم به من أعمال وإنجازات، وفي تربية الأطفال).

وتؤكد فواز على أن تربية البنات هي قاعدة كل تربية. إذ إن فساد الولد من الأم، حيث تقول: (كيف يصلح شبابنا وقد تغذوا بلبان الجهل ونشؤوا في مهد الهمجية). فجهل النساء ينعكس بالنتيجة على الأولاد، لأن النساء أساس العمران والمدرسة الأولى لكل من دب على الأرض من جنس الرجال، فيهن يتقدم، وبهن يتأخر.

كما تشير الكاتبة إلى أن جهل المرأة يجعلها فريسة سهلة للشعوذة والدجل الديني، وضمن هذا الإطار تتحدث في عدة رسائل عن حفلات الزار.

يقول بوعلي ياسين في كتابه «حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة»، إنه في عشر رسائل من أصل ٧١ إحدى وسبعين رسالة، تبحث الكاتبة زينب أو تناظر في المفاضلة بين الرجل والمرأة فتدعو إلى المساواة، لا تفضيل جنس على آخر، إلى المشاركة لا المزاحمة: (إنما نحن جنسان مشتركان في هذه الحياة لا ثالث بيننا، ولا يمكن لأحدنا الاستقلال دون الآخر. ولكل منا ملهى في مسرح الحياة يلهيه عن مزاحمة الآخر، وهكذا نحن شركاء في السراء والضراء.

والإنسان مكلف بعملين لبقاء الشخص والنوع، وكلا القسمين عاجز عنهما بانفراده، فكل منهما ناقص من جهة، زائد من جهة أخرى، لكن متى انضما، كان منهما ماهية إنسان كامل). ولا تنكر الكاتبة أن المرأة متخلفة عن الرجل لكنها لا تعتبر ذلك من الطبيعة بل باستبداد وتسلط الرجال على حقوق النساء وإهمالهم تعليمهن.

وتقول زينب فواز في رسالتها الموجهة إلى هنا كوراني: (فالمرأة إنسان كالرجل ذات عقل كامل، وفكر ثاقب وأعضاء متساوية، تقدر الأمور حق قدرها، وتفصل بين الزمان والمكان، وكم من امرأة حكمت على الرجال).

وقد تكون «الرسائل الزينبية» الأهم في نتاج زينب فواز إذ ألها مؤشر إلى المدى الذي بلغته هذه الأديبة في وعيها ونضج تفكيرها.

كشف الإزار عن مخبآت الزار

وهو عبارة عن مقالات تتحدث فيها عن تلك الآفة الإجتماعية التي سيطرت على المجتمع المصري، وصورت فيها البيئة القاهرية التي كانت مصدراً مشهوراً لمعظم الخرافات، وفي طليعتها مسألة الزار. فنبهت زينب بمقالاتها إلى أسوأ العادات المصرية وأثرها السيِّء على البيئة الاجتماعية. وقد اشتمل كتاب الرسائل الزينبية على موضوع بهذا الاسم، وهو كما يبدو تعقيبات صحفية على كتاب «الإزار عن مخبآت الزار» لمحمود شكري صاحب جريدة «البستان» المصرية، كانت قد نشرتها زينب فواز في جريدة «النيل». ومن المحتمل أن تكون هذه المقالات أو التعقيبات قد جمعت في كتاب مرادف لكتاب محمود شكري، سمته كشف الأسرار عن مسألة الزار، ولكنه لم يظهر إلى عالم الوجود. ولعل السيد محسن الأمين قد عناه حين ذكر أسماء مؤلفاتها.

تعقيب على مقالة هنا كوراني

جريدة « النيل»

بقلم : زينب فواز

كتبت زينب فواز في جريدة « النيل» في العدد ١٥١ بتاريخ، ١٨ ذي الحجة ١٣٠٩ هجرية ١٨٩٢م ، مقالة تحت عنوان « الإنصاف» ردت به على هنا كوراني، فقالت :

(نشرت جريدة « لبنان» مقالاً تحت عنوان « المرأة والسياسة»، لحضرة الأديبة الفاضلة هنا كوراني ، فهي وذمة الحق غاية في المنى وأعجوبة في رقة المعنى إلا أنها جارت في حكمها ، وشددت النكير على بنات جنسها ، وضربت عليهن الحجر المنزلي ، وعملت على منعهن من التدخل في كل الأمور الخارجية المختصة بأعمال الرجال ، من مثل قول حضرتها : ﴿إن المرأة لجهلها شرف مقامها تظن أن مساواتها بالرجال لا تتم إلا بعملها ، وإن المرأة لا تقدر على عمل خارجي مع أداء واجبات ما يلزم لخدمة الزوج والأولاد ﴾ وقول حضرتها في هذه الخطة ، أي الخطة المنزلية طبيعة للنساء ، ولا يجوز لهن أن يتخطينها ، إن هذه سنة قدسها الله لهن ، ولو تجاوزنها لتغير نظام الكون ، وتبدلت نواميس الطبيعة ، ولو حاول الإنسان إبدالها لخاب أملاً ولفشل عملاً ، ولا يمكن إبدالها وتغير القصد فيها إلا بالهلاك العاجل أو الآجل . وقول حضرتها ، لم يفقهوا بعد كالواجب ، ما هي المرأة ، وما هو الرجل ،

بل تراهم يحاولون أن يساووا بينهما بمجرد الأعمال، وهذا بهتان ووبال على الجنس عميم، لا بد أن ينتج عنه ويل شديد وبلاء جسيم، إن الطبيعة تجازي من يتعدى نظامها بالحزن والألم إلى غير ذلك، من مثل هذه الأقوال ، ووجهت سهام اللوم على نساء إنكلترا، كيف أنهن طلبن التداخل في الأمور السياسية، وهو الطلب الذي لا يخفى على القراء الكرام، المتضمن ما كان من أمر لا ئحة الانتخاب المختصة بطلب النساء وكيف أبطلها المستر غلادستون في مجلس نواب إنكلترا، فخطأتهن الفاضلة بهذا الطلب، ووافقها على ذلك حضرة الأديب الفاضل صاحب جريدة « لسان الحال » وإني لأبدي ما جال بفكري من هذا القبيل :

دواؤك فيك وما تبصر

وداؤك منك وما تشعر

تأمل أيها العاقل كيف أن الإنسان صغير بالجرم ، كبير في العالم، ضعيف في نفس الأمر، قوي بالفعل، يقدم على الصعاب يذللها بقوة ذكائه، ويهجم على الأمور بهمة، فتنقاد له طوع بنانه، خضعت له جميع الموجودات بحسن تدبيره وقوة حزمه، لا يثني عزمه شيء متى ثبت قدمه في طلب ما يرغب الاستحصال عليه والوصول إليه، ولولا الحزم لما ازدهى العمران كما هو الآن، ولاسطعت أنوار العلم والعرفان ، ولا خفقت أعلام التقدم في هذا العصر، ولا استحصلت أوروبا على قصورها الشائقة، وأبنيتها الفاخرة، وسككها الحديدية، وأسلاكها البرقية، ولا خرجت من وراء ضباب توحشها الأصلي إلا بالحزم والإقدام، ولا كثرت الاختراعات والاكتشافات إلا بعد الخوض في عباب الأقدار وتجشم الأخطار، ولولا ثبات عزم الإنسان لأرجعته عن مقصوده أقل عثرة وأوقفته في طريق بلوغه إلى الغاية، أدنى صدمة، ولا كان يتسنى له أن يخرج من ربقة التوحش إلى ميدان التمدن، ولو كانت كل عثرة في طريقه يحسبها خيبة وأنهزم منها متقهقراً يجر ذيول الخجل ويعض أنامل الخيبة والفشل، لما عمر الكون ولا ظهر شيء مما تراه اليوم من

هذه الموجودات التي تدهش العقول وتحير الأفكار، وببركة الإقدام فتحت الفتوحات وعمرت البلدان.

وما من أمة فشا فيها داء الكسل وسرت إليها علة الخمول، إلا دمرتها وهدمت أركان عزمها ودكت حصون تمدنها، ومما يؤيد لنا ذلك هو ما ظهر لنا من تقدم الغرب على الشرق في هذا العصر حينما عولج أهله وشفي جسمهم من داء الكسل والخمول، فازدهر عصرهم على جميع العصور، وفاق كافة الدهور، إلى حد أنه حار النساء فيه يبارين الرجال ويشاركنهم في الأعمال، وحيث قد أجمع السواد الأعظم منهم على أن الرجل والمرأة متساويان بالمنزلة العقلية وعضوان في جسم الهيئة الاجتماعية لا غنية لأحدهما عن الآخر. فما المانع إذا من اشتراك المرأة في أعمال الرجال وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها، متى كانت جديرة تؤدي ما ندبت إليه، وإلا فما فائدة تعلم المرأة الغربية جميع العلوم التي يتعلمها الرجال من فلسفة وحكمة ورياضة وهندسة، وتدرس القوانين السياسية، إذا كانت لم تعمل بمقتضاها وتخدم النوع البشري، وتعد من أعضاء الهيئة الرئيسية، إنها ما خلقت لكي لا تخرج عن دائرتها المنزلية. وأن لا تتداخل فيما يختص بالأعمال الخارجية سوى ما يلزم من تدبير المنزل وتربية الأولاد والطبخ والعجن. وما أشبه ذلك فقط، كما تعتقد حضرة الفاضلة.

لا لعمري، بل عوائدهن تسمح لهن بأن يكتسبن كل فن من الفنون ويعملن به، وأما تدبير المنزل وتربية الأولاد فإنها ملكة في النساء طبيعية غريزية لا يلزم لها درس ولا تعليم ولا سن قوانين ولا قواعد، بل من أراد أن يعرف قوانينها يأخذها عنهن بدون أن يرى كبير عناء سواء كن في حالة التوحش أم لا؟ حتى إن المتوحشات من النساء يدبرن منازلهن ويربين أولادهن بقدر الإمكان.

وأما قول حضرتها، إن تجاوزهن لتغيير نظام الكون وتبدل نواميس الطبيعة. نعم إن للوجود طبيعة لا يمكن إبدالها وله في خلقه نواميس لا يتسنى تغييرها، وهذا

التغيير ليس باستخدام المرأة بأشغال الرجال أو باستخدام الرجال بأشغال النساء كما تتوهم حضرتها، إن ذلك ليس من المستحيل الذي لا يتأتى للإنسان أن يجربه ولا من الأمور التي يحصل منها ما يكدر راحة النوع الإنساني كما توهمت من استحالة ذلك بقولها: ﴿ كما لا يتأتى للإنسان أن يحول من البخار ذهباً أوحديداً، كذلك لا ينبغي للمرأة أن تخرج من خطتها المنزلية﴾. والحال أننا لم نر شريعة من الشرائع الإلهية أو قانوناً من القوانين الدينية، قضى بمنع المرأة أن تتداخل في أشغال الرجال، وليس للطبيعة دخل في ذلك، وما أظن بأن الشمس تحولت غرباً، ولا ماء البحار صار عذباً. ولكن المرأة إنسان كالرجال ذات عقل كامل وفكر ثابت وأعضاء متساوية، تقدر الأمور حق قدرها وتفصل بين الزمان والمكان، وكم من امرأة حكمت على الرجال وساست الأمور ورتبت الأحكام وجندت الجنود وخاضت المعامع ومارست الحروب، كالملكات اللواتي سسن ممالكهن أحسن سياسة كما أنبأنا التاريخ عمن تقدمنا من قبل، مثل: كليوباترا، والملكة زنوبيا ملكة تدمر، وآليصابات، وغيرهن ممن سلفن، وما رأينا من تداخلهن في شؤون الرجال ما أخل في نظام الطبيعة أو نقص تدبير منازلهن. بل إن النظام العائلي مازال باقياً على ما كان عليه. وهو كأني بها تعترض علي بقولها: إن هؤلاء ملكات وقادرات على تأدية وظائفهن المنزلية والإدارية، فأقول:

نعم وقد أنبأنا التاريخ عن نساء العرب كيف شاركنَ الرجال بالأعمال والحروب، وتكبدن الأخطار ومعاناة الشدائد والأهوال مع أنهن كن زوجات وأمهات، وكم درج من عشهن رجال وأي رجال، رجال ملكوا الدنيا بأجمعها، ولم تخل بنظامها زوجاتهم وأمهاتهم، بل كنَّ يساعدنهم على إعمارها وحسن نظامها.

ومن الشواهد أيضاً في عصرنا هذا أن الرجل لو مر في شوارع أي مدينة كانت من المدن الشهيرة، وجد مخازنها غاصة بالنساء الأوروبيات، يتعاطين

الأعمال التجارية وحسابها، والأشغال اليدوية وإتقانها على ما ينبغي، وكلهن زوجات وأمهات يدبرن أمورهن المنزلية وأشغالهن الخارجية على أحسن نظام، ثم إذا نظرنا إلى النساء الفقيرات اللواتي عندنا في مصر والإسكندرية وجميع الأنحاء المصرية، نجد أغلبهن يتعاطين الأشغال كالرجال، فمنهن تاجرات وصانعات ومنهن من يشتغلن مع الفعلة في البناء، وغير ذلك مما يختص بأمر المعاش المطلوب من الرجال، فنجد العائلة من رجل وامرأة وأولاد، فالرجل يتوجه إلى مهنته، والمرأة تتوجه إلى حرفتها وإن كانت تاجرة إلى حانوتها بعد أن تنظر في صالح منزلها و ما يلزم لأولادها من طبخ وعجن وغسيل وما أشبه ذلك. فنجد الأسواق غاصة بالنساء، يبارين الرجال بالمعاملات والأخذ والعطاء وغيره من هذا القبيل.

ثم إننا إذا حولنا النظر إلى جهة الأرياف، نجد الغيطان والحقول عامرة بالنساء، بعدد الرجال وأكثر. وكلهن يساعدن أزواجهن وأبناءهن ويجرين الأعمال كالرجال من زرع وقلع وحصد، وغير ذلك في ما يختص بأشغال الزراعة التي هي حياة العالم. وهؤلاء أيضاً لهن أزواج وأولاد، فالعاقل الذي ينظر في أمور هذه الدنيا يجد الجنسين متساويين، وإنما الإهمال أوجب تأخير المرأة ليس إلا.

وإني لا أخطىء نساء إنكلترا بتدخلهن في أمور السياسة وطلبهن حق الانتخاب، بل أقول: نعم لهن حق أن يطلبن هذه الخطة مادمنَ قادرات على أداء واجبهن كما يؤديه الرجال.

ومن المعلوم أن تعاطي أمور السياسة، لايكون إلا بعد درس القوانين السياسية والاجتهاد في أخذ العلوم الإدارية، وغيرها مما يلزم لهذا المركز الخطير. والمرأة في الغرب لا فرق بينها وبين الرجل في درس العلوم وتعليم كل ما يلزم للرجل من العلوم السياسية والتجارية والصناعية، وغير ذلك مما يدور عليه محور العالم الإنساني. فلم لا تطلب الاشتغال في السياسة كا شتغالها بالتجارة والصناعة، وغيرها مما يلزم للإنسان في هذه الحياة الدنيا. وليس إبطال اللائحة التي

قدمتها متضمنة ذلك الطلب أمراً يوجب عليهن اللوم والتعنيف. لا لعمري لأن الإنسان لابد أن يصادف في سبيل إدراك المقصود موانع تصده عن الغرض ولا لوم عليه ولا تثريب، وعلي أن أسعى وليس علي إدراك النجاح. ولولا معارضة الذين بيدهم مقادير الأمور كالمستر غلادستون وغيره، لما كانت صادفت لائحة النساء ما صادفته من المنع، ولم يكن إبطالها عن سبب يشير إلى نسبة العجز إليهن، أو للحذر من العقبى. لا لعمري بل نظروا لها بعين الحقد وظنوا أنها من باب المنازعة في الحقوق، فكثر اللغط وزاد القيل والقال واستفحل الأمر واشتدت الأزمة، وكان ما كان.

وهذا ليس بأول أمرٍ صادف معارضةً، بل هي عادة الله في خلقه، وسنة الزمان في كل أمرٍ بدىء به، كما لا يخفى على كل من اطلع على تواريخ الأمم. وحيث أن تداخل النساء في السياسة هو أول أحدوثةٍ، فلابد أن يستعظمه كل من لا يعرف كنه المسألة سيما إذا كان من الحاسدين. وأما النساء اللواتي استحسن رفض هذه اللائحة، فهن ولا مؤاخذة أحق باللوم من غيرهن، لإنهنَّ اخترن العزلة والكسل، وفضلن البطالة على العمل، ورضينَ بالفخفخة وجر الذيول على بساط الخمول، ولو اجتهدنَ كأخواتهن لكنَّ فعلن ما تقتضيه واجباتهن، وكن أبدين ما عندهن من الحزم والرغبة في خدمة النوع والوطن، وهو الأليق بهن، وإن لم يصادف نجاحاً، وعلى كل حال فإن مثابرة المرأة على طلب التقدم حتى تنال حقوقها، لا يعد ذنباً عليها، بل يفتخر بها مدى الدهر فتكون مذكورةً بلسان الشكر على فتحها باب النجاح لأخواتها).

الباب الرابع

نماذج من كتابات زينب فواز

من كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور

١ ـ عائشة التيمورية.

٢ ـ فاطمة الخليل.

٣ ـ مريم نحاس نوفل.

٤ ـ خولة بنت الأزور.

٥ ـ ليلى العامرية.

٦ ـ زينب ملكة تدمر.

عائشة التيمورية

عائشة عصمت بنت اسماعيل بن محمد كاشف تيمور .

أديبة فاضلة ، حكيمة عاقلة بارعة باهرة ، شاعرة ناثرة رضعت أفاويق الأدب وهي في مهد الطفولة وتحلت بحلى لغات العرب قبل تضلعها باللغة التركية وفاقت على أقرانها فصاحة عند بلوغها سن الرشد وصارت ندرة زمانها ، بين أهل الإنشاء والإنشاد ولم تدع لولادة مقالاً ولم تترك للاخيلية مجالاً . وقد اخنست الخنساء وأنستها صخر ، وسارت في مضمار أدباء هذا العصر . تعلمت العلم والأدب في مصر القاهرة على أساتذة أفاضل بين أبويها ، وكانت أكثر ميلاً إلى علم النحو والعروض حتى بلغت في الشعر حداً لم يبلغه غيرها من نساء عصرها .

ولدت سنة ١٢٥٦ بمدينة القاهرة ، والدتها جركسية الأصل معتوقة والدها إسماعيل باشا تيمور ، ولما انطوى بساط مهدها وفرقت بين أبيها وجدها بادرت والدتها إلى تعليمها فن التطريز ، واستحضرت لها آلات التعليم . وكانت أفكارها غير متجهة لتلك بل جل مرغوبها تعلم القراءة والكتابة . وقد علم منها هذا الميل من إئتلافها مع كتّاب والدها . وكلما كانت والدتها تمنعها عن الحضور مع الكتاب وتجبرها على تعلم التطريز تزداد هي نفوراً من طلب والدتها . ولما رأى والدها تلك المحاورات تفرس فيها النجابة ، وقال لوالدتها : دعيها فإن ميلها إلى القراءة أقرب . وأحضر لها اثنين من الأساتذة أحدهما يدعى إبراهيم أفندي مؤنس كان يعلمها القرآن والخط والفقه ، والثاني يدعى خليل أفندي رجائي كان يعلمها علم الصرف واللغة الفارسية ، وبعدها تعلمت القرآن الشريف . تاقت نفسها إلى مطالعة الكتب

الأدبية وأخصها الدواوين الشعرية، حتى تربت عندها ملكة التصورات لمعاني التشبيهات الغزلية وخلافها، ولما صارت قريحتها تجود بمعان مبتكرة لم يسبقها عليها غيرها رأى والدها أن يستحضر لها أساتذة عروض من النساء الأديبات. وقبل إتمام ذلك صار زواجها من السيد شريف محمود بك الإسلامبولي ابن السيد عبد الله أفندي الاسلامبولي كاتب ديوان همايوني بالآستانة سابقاً، وذلك كان سنة ١٢٧١ هجرية.

وهناك اقتصرت على المطالعة وإنشاء الأشعار، والتفتت إلى تدبير المنزل وما يلزم له، خصوصاً حينما رزقت بالأولاد والبنات، وبقيت على ذلك حتى كبرت بنت كان اسمها وحيدة فألقت إليها زمام منزلها. وكان في تلك الفترة توفي والدها في سنة ١٢٨٩، وزوجها في سنة ١٢٩٢، وصارت حاكمة نفسها، فأحضرت لها اثنتين لهما إلمام بالنحو والعروض، إحداهما تدعى فاطمة الأزهرية والثانية ستيتة الطبلاوية، وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره، وأحسنت الشعر وصارت تنشد القصائد المطولة والأزجال المتنوعة والموشحات البديعة التي لم يسبقها أحد على معانيها. ومن ذلك قد جمعت ثلاثة دواوين بالثلاث لغات العربية والتركية والفارسية. وقبل أن تشرع في طبعها توفيت كريمتها وحيدة، وهي في الثامنة عشرة من عمرها. فاستولى على المترجمة الحزن والأسف الشديدين حيث أنها كانت مدبرة منزلها ولم تحوجها لأحد سواها. وهناك تركت الشعر والعروض والعلوم وجعلت ديدنها الرثاء والعديد والنوح مدة سبع سنوات حتى أصابها رمد العيون. وهناك كثرت لواحها وعواذلها من أولادها وصويحباتها ونهوها لتقلع عما هي فيه.

و.سير، سمعت قول الناصحين، وقللت شيئاً فشيئاً من البكاء والنوح حتى شفاها الله من مرض العيون. فجمعت ما وجدته من أشعارها، فوجدت بعضه والباقي تفرق مدة حزنها. فجاء من ديوانها بالتركي سمته (شكوفة)، وديوان عربي سمته (حلية الطراز) وقد طبع ونشر وكان له وقع عظيم في النفوس وقبول زائد عند أهل الأدب. وبعد ذلك رأت نفسها أنها قادرة على التأليف فألفت كتاباً سمته (نتائج الأحوال)، فجاء غريباً في بابه، وقد طبع ونشر أيضاً. ولما انتشرت مؤلفاتها المذكورة سارت في حديثها الركبان إلى أقصى العمران وطار صيتها في الآفاق، ووردت إليها التقاريظ من كل جهبذ أديب ولوذعي أريب. وجميع ما ورد لها من التقاريظ مكتوب في مؤلفاتها المذكورة التي منها هذا التقريظ الآتي من السيدة ورده اليازجي التي أبدعت فيه لرقة معانيه على ديوان «حلية الطراز» وهذا نصه:

سيدتي ومولاتي!

إنني قد تشرفت بإطلاعي على حلية طرازكم التي تحلى بها جيد العصر. وأخجلت بسبك معانيها خنساء صخر. أرى وهي الدرة اليتيمة التي لم تأت فحول الشعراء بأحسن منها وقصر نظم الدر عنها، وشنفت بحسن ألفاظها مسامعنا. حتى غدا يحسدها السمع والبصر، وسارت في آفاقنا مسير الشمس والقمر. ولقد تطفلت مع اعترافي بالعجز والتقصير بتقريظ وجيز، فكنت كمن يشهد للشمس بالضياء، أو بالسمو للقبة الزرقاء، راجية من لدنكم قبوله بالإغضاء، ولازلتم للفضل مناراً يسطع، بين الأدباء المقام الأرفع، بمن الله وكرمه.

حبــــذا حليـــة الطراز أتت من — مــــصـــــر تزهو باللؤلؤ المنظوم
حليـة للعـقـول لا حليـة الوشي — وكنز المنطوق والمفــــهـــــوم

أنشـــأته كـــريمة من ذوات المجـــد — والفـــجـــر فـــرع أصـــيل كـــريم

شـمس علم تأتي القـصـائد منهـا — سـائرات في الأفق سـيـر النجـوم

كـل بيت بكـل مـــعنى بديع — مـــا على السُكْرِ فـيـــه من تحـريم

قـد أعـاد الزمـان عـائشـة فـيـهـا — فـــعـــاشت آثار علم قـــديم

هام قلبي على السـمـاع وأمـسى — ذكـرها لذتي وفـيـهـا نعـيـمي

هي فـــخـــر النســـاء وردة في — جـيـد ذا العـصـر زيَّنَتْ بالعلوم

فـأدام المولى لهـــا كـل عـــز — مــا بدا الصـبح بعـد ليل بهـيم

ومن تقاريظ كتاب «نتائج الأحوال» التقريظ الآتي من السيدة وردة اليازجي أيضاً وهو:

سيدتي ومولاتي!

اعرض أني بينما أنا ألهج ألطافكم السنية، وأتنسم شذا أنفاسكم العبقرية وأترقب لقاء أثر من لدنكم يتعلل به الخاطر، ويكتمل بأثمد مداده الناظر، وصلتني مشرفتكم الكريمة وفريدة عقد وردكم اليتيمة. فجلت عن العيون أقذاءها، ووردت إلى النفس صفاءها. فتناولتها بالقلب لا بالبنان، وتصفحت ما في طيها من سحر البيان.

هذا الكتاب الذي هام الفؤاد به — ياليتني قلم في كف كاتبه

لعمري إنه كتاب حوى بدائع المنثور والمنظوم، وتحلى من دور الفصاحة فأخجلت لديه دراري النجوم. وقد تطفلت على مقامكم العالي بهذا الجواب، ناطقاً بتقصيري، وختمته من مدح سجاياكم، لا زلتم للفضل معدناً وذخراً، وللأدب كنزاً وفخراً.

أتت فشفت بطيب الوصل قلبي فــتــاة تيــمت قلب المحب
بديعـة منظر سلبت فـؤادي ومن لي أن أطالبـهـا بسلبي
جلت وجـهـاً كـبـدر التم لكن يلوح من الغـدائر تحت حـجب
لهـا وشم كـخط السـحـر وافى لديه الخـال بالتنقـيط يسبي
فـصـيـحـة منطق ناغت بلفظ كـسلسال من الصـهـبـاء عـذب
أتـت تـروي لـنـا عـن لـطـف ذات غـدت باللطف تسـبي كل لب
وقـد أهدت تحـيـات تحـاكي شـذا النسـمـات عـاطرة المهب
رسـول للولاء دعـت فـؤادي فـبـادر عند دعـوتهـا يلبي
ولاء كـريمة خـيـر لقـوم سـمَـوْا شـرفـاً على عـجم وعـرب
فـتـاة زيَّنتْ جـيـد المعـالي بـدرٍّ مـن حـلـى الآداب رطـب
أهيم بهـا على بعـد ومـاذا على الأقـدار أن سـمـحت بقـرب
على مـصـر السلام وسـاكنيـهـا ومـافي مـصـر من مـاء وترب
عـلى ربع به قـلبي مـقـيـم ومـن لي أن أقـيـم مكـان قلبي
ألا يا من سـمت في كل فـضـل ونـالت كل خلق مـسـتـحـبٍّ
ومن فـاضت مكارمـهـا فـأحـيت لديّ من القـريحـة كل جـدب
لقـد أوليـتني كـرمـاً وجـوداً بمدح من صـفـاتك جـاء ينبي
ثناء لست منه غـيـر أني به فـاخـرت أترابي وصـحـبي
ورب مـؤلف كـالروض أجـرت عليـه سـمـا البـلاغـة أيّ سـحب
تهـادت فـيـه أبكار المعـاني تجـرّ من الفـصـاحـة ذيل عـجب
لقـد طابت فكاهتـه وأهدى لاسـقـام القـرائح خـيـر طب
جـلا الحِكَمَ التي كـانت مناراً لكل بصـيـرة في كل خطب

رأيت نتائج الأحوال فيه ممثلة تلوح بغير نقب

لتيمورية العصر المحلى بما نسجت يداها كل حقب

أديبة معشر شرفت أصولاً وسارت بين أقلام وكتب

حوت قصب السباق بكل فن وراضت في المعاني كل صعب

ودونك غادة عذراء وافت بمهجة شيِّق للقاك صبٍّ

واني لو قدرت جعلت ذاتي بها سطرا ينادي الركب سربي

تقر بعجز من نظمت حلاها وتلتمس القبول وذاك حسبي

ومن إنشاء المترجمة نثراً ما قالته ونشر في جريدة « الآداب» يوم السبت الموافق ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٠٦ هجرية تحت عنوان (عصر المعارف) وهي :

لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات

إني وإن كنت لست أهلاً لمجال المقال في هذا المضمار، ومعترفة بقصر اليد عن قبض زمام المنال، لا عتكافي بخيمة الإزار، لكني أرى من خلال أطرافه أن مناهج التربية ظرف الكنوز، وبحدود مسالك التأديب مفاتيح كل جوهر مكنوز، فالواجب على كل ذي نفس كريمة، أن يميل كل الميل إلى تلك السبل الفخيمة، ويحث كل عزيز له أن يرتع في مراتعها القويمة، ليحظى بتلك الجواهر اليتيمة. مع أني أرى الهيئة الشرقية لا تنظر الا ما هو أمامها من الصالح، فتخص به نفسها، ولو التفتت إلى ما بعد يومها وتفقدته، لعضت أنامل الندم على ما فرّطت، ووجدت بالالتفات إلى حكم بارىء النسمات وموحد المخلوقات، وهي المصانع البديعة الربانية، والمباني الأصلية الطبيعية، صيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين. ولو أمكن الانفراد لخص عالم الأسرار أحدهما دون الآخر وهو الافضل، ولم يفقره إلى ما هو دونه، فكان التأمل في هيولى هذا الكون موجباً على الهيئة الرجولية العناية بتأديب البنات وتهذيب العائلات، لان ثمرة السؤدد راجعة اليها، فلربما أنه عقد أمر على الرجل فأدهشه، فلمته الزوجة بأطراف بنانها الرقيقة، وأخذت جذوة ولوعه بتدابيرها الدقيقة. وهو مع ذلك يجتهد في أن يكتم فضلها بين أفراد الهيئة، ويحذر من إعلانه خشية أن يقال هي ذات معلومية، فيكدّر عيشه الصافي. وهذا بخلاف الدولة الغربية. فالأسف ثم الأسف على هيئة لم تمض فحصها في هذا النسق البديع، ولم تجهد نفسها في البحث على هذا الشرف الرفيع. والعجب ثم العجب على مدينة تشغف بتزيين فتياتها بحليٍ مستعار،

وتستعين على إظهار جمالهن بزخرف المعادن والاحجار . وتتخيل أنها زادتهن بسطة في الحسن والدلال ، والحال أنها ألقت تلك الأحداث في أخدود الوبال ، لأنه لم يعد عليهن من تلك المستعارات إلا العجب والغرور ، المؤدي بهن إلى ساحة المباهاة والفجور ، وذلك لكف بصيرتهن عن الإدراك وعدم علمهن بنتائج الأحوال وعواقب الأمور .

قـــد زينت بـــالدرغرّة جبهة وتـوشحت بخمار جهل أسود

وتطوّقت بالعقد تبهج جيدهـــا والجهل يطمس كل فضل أمجد

فلو اجتهدت الهيئة الرجلية في حسن سلوكهن بالتربية ، وجذبتهن بشواهد المدنية إلى طرف الاطلاع ، لتتوّجت تلك الغانيات من تلقائها بيواقيت المعلومية ، وتقلدت بلآلىء التفقه . وكلما شبت ألفت خطواتها في طرق الإدراك ، وأدركت مزية حليها الأصيل فزادته جلاء ، وفطنت بغلاء قيمته فأوقرته بهاء وسناء ، واستغنت بلمعة شرفه عن أرفع جوهر قماش ، ولو كان ملبسها ثوباً من الشاش .

إن العلوم لأهل الفخر جوهرة يسمو بها قدر الوضيع ويشرفُ

فوجودها في درج مهجة فاضل مـــن حازها بين الأنـام مشرّفُ

فأستوهبكم العفو يا أرباب العقول عما سأقول : نحن معاشر المخدرات أدرى منكم بنشأة الأطفال من بنين وبنات ، إذمن المعلوم أن الطفل حيثما صار على كف القابلة بادر أوّلا بالبكاء ، ثم هجع برهة لفتوره مما لاقاه من التعب ، لاسيما إطلاق صوته في الصياح الذي لم يكن سبق له ، ثم ينتبه محركاً جيده يميناً وشمالاً فاتحاً فاه لطلب الغذاء ، فترضعه أمه فينام على أثر الشبع . فترى منه بسيمات خفيفة في أثناء نومه . وهذا دليل على أن دنيانا دارُ همٍّ ومحل أحزان وغم ، كثيرة الجفاء قليلة الصفاء . فإذا أخذ الطفل في النموّ وبلغ خمسة أشهر ، كانت أول فطنته معرفة أمه ثم أبيه ، وتناول الشيء حيث هو منها لا يصاله إلى فيه ، فلكم التأمل في مبنى

هذه الإشارة الخفيفة والعبارة اللطيفة . ثم كلما اشتدت أعصابه وقويت أعضاؤه علا صياحه ، فتبادره الوالدة بألحان معدّة إليه فيصغي لسماع تلك الالحان . واذا ضاق صدره من ألم عالجته بكل حنان ، وحملته ودارت به من مكان . إلى مكان فيفرج كربه ويتلطف ألمه ، وهو يظن ذلك التلطف والتسكين بقدرتها ، وتبيت في قلق وضنك من الشفقة عليه . فاذا عوفى أتى إليه الوالد بما يبهجه وتقرُّ به عينه حسب قدرته ، فإذا كبر وترعرع وطمحت نفسه للشراسة الطفلية اخترعت له أمه ما يلهيه عن ذلك ، وخوّفته بمخترعات الأسماء ، منها ما يتخيل به إرهاباً . وإذا صاح ذكرته به ، وإذا تشيطن نادت به اليه ، فيسكت الطفل . وتارة تذكر له أباه وتوجس به ، منه شراً فتوقع في قلبه من جهته الرعب ، فيستعظم قدرته ويكبره في عينه ، ويجعل هيبته إنسان قلبه ومركز ذاته .

فياليت شعري ، ماذا يكون من أمر هذه الفقيرة إلى العلوم وهي خاوية الوفاض عما تستحقه ، إن في ذلك لحكماً :

إن المصابيح إن أفعمتها دسما   أهدت لوامعها في كل مقتبس

وإن خلا زيتها جفت فتائلها   أين الضياء لخيط غير منغمس

وكيف تحسن الشفقة الوالدية بإساءة المشفق عليه ، فلو عنيت رجالنا معاشر الشرقيين بتربية بناتهم ، وأجمعت على تلقين العلوم لهن بمقدار شفقتهم ، لنالت أرفع مجد وأهنأ جد ، ولعوّضت تلك الفتيات عن ذلك القلق براحة العرفان ، وأوسعت بسواعد معلوميتهن مضيق السلوك إلى ساحة الاذعان ، وقامت بواجبات التدبير ، وهمت بوقاية أساس حليتها من التدمير ، لأن تخرب الدوز بعد انقطاع أهلها طبيعي ، والطبيعي ليس بضار ، انما هدم سقف الشرف بصرصر الجهل مع وجود الديار هو العار بل النار .

ومن المستغربات أن يفرط الغارس في تمهيد الأصل، ويأسف على اعوجاج الفرع، هو المؤدّى به، فلو أروت الرجال غرائسها من قرارة المعرفة والعرفان، لاتكأت في ثقل الأحمال على قويم تلك الأفنان، وصعدت بمساعدتهن أعلى الدرج، وتمسكت بأقوى الحجج . ولكن تعالت هيئتنا هذه في التنمق عن التهذيب، بحجة أوهى من بيت العنكبوت، وهي أنهن اذا تعلمن الكتابة يعلقن بالهوى، ومغازلة السوى بالجوى، وبادرن بالمراسلات . ألم يطرق مسامعهم روايات الأمين وأحاديث الجاهلين فيا رجال أوطاننا وملاك زمام شأننا، لم تركتموهن سدى، وذهلتم عن مزايا التأمل في * ماذا تفعل اليوم ستلقاه غداً* فمن أنكم بخلتم عن أن تمدوهن بزينة الإنسانية الحقيقية، ورضيتم بتجردهن عن حليتها البهية، وهن بين أنامل سطوتكم أطوع من قلم، وخضوعهن لسلطتكم أشهر من نار على علم . فعلام ترفعونِ أكف الحيرة عند الحاجة، كالضال المعنى، وقد سخرتم بامرهن وازدريتم بإشتراكهن معكم في الأعمال، واستحسنتم انفرادكم في كل معنى، فانظروا عائد اللوم على من يعود .

واني أروم إظهار مقالي هذا ولكني لم أر ساعداً يكون لي مساعدا، حتى منحني المراد، مفتاح درج ما كنَّهُ الفؤاد، وهي رسالة إحدى السيدات التي ترى تربية البنات من الواجبات . فيالها من سيدة جلت بلوامع انتباهها في الليلة الليلاء سرجاً، ورقت بقوة ادراكها في هذا السبق درجاً . وأنشقت أذهان السامعين من زهر فطنتها أرجاً، وكحلت بإثمد نصحها عيون الناظرين فأحيت بصيره، وأدارت أسنة اليوم عنهن لأنها بقدرهن خبيرة، فحق لي أن أهنيء المخدّرات بفضل تلك المشارة، التي شنفت مسامع الأيقاظ بهذه الإشارة . هذا وإني أرى أنجم مصابيحها الغراء، تنورُ بين أيدي الفضلاء، وتهدى أن يميل كل دان بالالتفات إلى ذلك الثناء المشهود، وتشغف كل مبصر بقبس منه يوصله إلى سبيل المقصود، والسلام على من اتبع الهدى .

* * *

ومن مراسلاتها إلى السيدة وردة كريمة الشيخ ناصيف اليازجي ،رداً على خطاب ورد للمترجمة منها، وهو: بسم الله أقول وعزة ما آثر البراعة، وعذوبة مذاق مزايا البلاغة، إني لأغبط كتابي، لدى لقاء من أؤدي إليه جوابي، فلو تطاوعني الإرادة لقرنت عين الإنسان بكل عين من حروفه، وصيرت نفس مرآة العيان قرطى مظروفه، أو قبل الشمل هديا لجعلت قربانه أبعد أورام أعظم رشوة وهبت إليه وجداً لم أجد له حدّا، وذلك عندما أقبل كتابكم من سماء المعاني بعبقري الخطاب، ونقشت رقة أرقام زبدة معانيه على صحاف الصدر، فنطق الجنان قبل اللسان بالترحاب. فلله در كتاب ما نطقت ولأدة الا بحروف هجايته، وما تغزلَ قيس إلا بألفاظ كادت تداني براعة بدايته، قد أسس بشيريراعه بخلاصة تأثير مآله حديقة الحق بالود، وسقى عطير مداده غرائس صدق تفترعن كل غرام ووجد. وقدعنّ لي أن أتتوج بتلك الحلية التي توسطت في فتح باب يانعة الوداد، وأنالتني نشيق تفاحات وردت هي لانتعاش الروح عين المراد. فأملي أن لا تبخلي علي بتلك العاطرة، ما هب الصبا، كما أنك لا تبرحين من بالي مالاح كوكب، لازال سنا عرفانك لائحاً بتيجان الربا، وذ كا بهائك يبدي سلام من حملها حبكم وصبا.

* * *

ومن مراسلاتها للسيدة وردة المذكورة أيضاً:

أستهل براعة سلام حمل الشوق رسالته، وتقلد الشفق ما نشقت ناشقة عرف الوداد كفالته، ولو رضيت المجال في صدق المقال لنطق بخالص الوفاء مداد حروفه، وأقام بأداء التحية العاطرة قبل فض ختام مظروفه. ولعمري قد توجته أزاهر الثناء بلآليء غراء، وكللته زواهر الوفاء من خالص الوداد، إلى حضرة من

لاتزال تستروح الأسماع بنسيم أنبائها صباحاً ومساء، وتشوق الأرواح إلى استطلاع بدرإنسانها الكامل أطرافاً واناء. ومما زادني شوقاً إلى شوق، حتى لقد شب فيه طفل الشفق عن الطوق، اجتلائي حديقة الورد القدسية، ونافجة الأدب المسكية. فيا لها من حديقة رمقتها أحداق الاذهان، فاقتبست نوراً ونورا، وانتشقتها مسام الآذان فثملت طرباً وسرورا. ومنذ سرحت في أرجاء تلك اليانعة إنسان العيون، وشرحت بأفكار البصيرة أسرار ذلك الدر المصون، لم أزل بين طرب أتوشح بوشاحه، وأدب أتعجب من حسن اختتامه وافتتاحه، وجعلت أغازل من نرجس تلك الروضة عيونا ملكت مني الحواس، وأهصر من غصون ألفاتها كل ممشوق أهيف مياس، وأتأدب في حضرة وردها خوفاً من شوكة سلطانه، وان حياتي بجميل الالتفات ضاحكة عن نفيس جمانه. وإذا بالياسمين الغض قد ألقى نفسه على الثرى، ونادى بلسان الإفصاح هل لهذه النضرة نظيرة يا ترى؟ فأشار المنثور بكفه الخضيب أن لا تطير لتلك الغادة، ونطق الزنبق بلسان البيان: لا تكتموا الشهادة. فعند ذلك صفق الطير بأكف الاجنحة وبشر، وجرى الماء لإذاعة نبأ السرور فعثر بذيل النسيم وتكسر، وتمايلت أغصانها المورقة لسماع هذا الحديث، وأخذت نسماتها العطرة في السير الحثيث، إذاعة لتلك البشائر في العشائر، ونشراً لهذه الفضائل التي سارت مسير المثل السائر. فقلت بلسان الصادق الأمين، بعد تحقيق هذا النبأ اليقين، هكذا هكذا تكون الحديقة وإلا، وكذلك كذلك لتكتب الفضائل وتملى:

وحدّثتني يا سعد عنهم فزدتني   غراما فزدني من حديثك يا سعد

فتحمل عني أيها الصديق تحية إلى ربة هاتيك الحديقة، واشرح لديها حديث شغفي بفضلها الباهر على الحقيقة، واعتذر عن كتابي هذا فقد جاء يمشي على استحياء، وكلما حرضه الشوق على القدوم يبطئه الحياء. وكيف وقد حل في منبع الفضائل، والمقام الذي لم يدع مقالاً لقائل. فكأني إنما أهدي الثمر إلى هجر، وأمنح البحر الخضم بالمطر، أدام الله معالي تلك الحضرة، وزادها في كل حال بهجة ونضرة، مالاح جبين هلال، وبلغ غاية الكمال.

ومن شعرها البديع قولها:

ولقد نظمت الشعر سيمة معشر ... قبلي ذوات الخدر الأحسابَ
ما قلتُه إلا فكاهة ناطق ... يهوى بلاغةً منطق وكتاب
فبُنيَّةُ المهدي وليلى قدوتي ... وبفطنتي أعطيت فصل خطابي
لله درّ كواعب نسبوا لها ... نسج العلا لعوانس وكعاب
وخصصن بالدر الثمين وهامت الـ ... خنساء في صخر وجوب صعاب
فجعلت مرآتي جبين دفاتر ... وجعلت من نقش المداد خضابي
كم زخرفتْ وجنات طرسي أنملي ... بعذار خط أو إهاب شبابي
ولكم أضا شمع الذكا وتضوّعت ... بعبير قولي روضة الأحباب
منطقت رُبات البها بمناطق ... يغبطنها في حضرتي وغيابي
وحللت في نادي الشعور ذوائباً ... عرفت شعائرها ذوو والأنساب
عوّدتُ من فكري فنون بلاغتي ... بتميمة غرا وحرز حجاب
ما ضرّني أدبي وحسن تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب
ما ساءني خدري وعقد عصابتي ... وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي
عن طيٍّ مضمار الرهان إذ اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتي في راحتي وتفرسي ... في حسن ما أسعى لخير مآب
ناهيك من سر مصون كنهه ... شاعت غرابته لدى الأغراب
كالمسك مختوم بدرج خزائن ... ويضوع طيِّب طيبه بملاب
أو كالبحار حوت جواهر لؤلؤ ... عن مسها شلت يد الطلاب
درّ لشوق نوالها ومنالها ... كم كابد الغواص فعل عذاب
والعنبر المشهور وافق صونها ... وشؤونه تتلى بكل كتاب

فأنرتُ مصباح البراعة وهي لي ... منح الإله مواهب الوهاب

وقولها غزلاً :

منشور حسنك في الحشا سطرته ... ورقيم خطك طالما كررته

سطر العذار تلوته فوجدته ... يومي لسفك دمي وقد سلمته

وقولها في الخمريات :

لاح الصبوح وبهجة الأوقات ... فاشرب وعاطي الصب بالكاسات

واجلب براحك للقلوب تروّحا ... فالراح تبدع نشأة اللذات

وانهض فديتك فالزمان مراقبي ... فالحظ لي في كل يوم آتي

ودع الوشاة وماتقول عواذلي ... فالعين عيني والصفات صفاتي

دعني ومالي في الفؤاد بحبها ... لماصبا بشقائق الوجنات

لاغرو أن كان الرشيق يديرها ... في معهد الغزلان والبانات

فأنا الأسير بظل روض كرومها ... ولو ان في عتقي هنيًّ حياتي

وأنا الشهيد بحب ذوق عصيرها ... إن كان في حب الكؤوس مماتي

جهل العواذل ماتريد بشربها ... نفسي وماتلقى من السكرات

تسليني عن جفوة أم صبوة ... لفؤادي المضني من الحسرات

شتان بين ظنونهم وسرائري ... والله يعلم منتهى غاياتي

كم باتت الاحداق يسقي طلُّها ... روض الجوى وحدائق اللوعات

ياعاذلي كف الملام فإنني ... صب بدت بين الورى آياتي

قل مــاتشــاء فــإن قــولك مطربي وحــديث من أهوى دوا عــلاّتي
إن شــئت لُمني أو فــهــدّدْ وانتــه فــأليم لومك في الهــوى لذاتي
لعــبت بي الأشــجــان حــتى إنني لــم أدرِ مــن أهــوى ومــن هــو ذاتــي
ورســا بي الشــوق الخؤون لمعــهــد أهو العُــلا أم غــرفــة الجنات

وقالت ترثي ابنتها:

ان ســال من غــرب العــيــون بحــور فــالدهر باغٍ والزمــان غــدورُ
فلكل عين حق مــدرار الدمــا ولكل قلب لوعــة وثبــور
سُتِرَ السنا وتحــجَّبَتْ شمس الضحى وتنقــبت بعــد الشــريف بدور
ومضى الذي أهوى وجــرّعني الأسى وغــدت بقلبي جــذوة وســعــيــر
ياليــتــه لما نوى عــهــد النوى وافى العــيــون من الظلام نذير
ناهيك مــافــعلتْ بماء حــشــاشــتي نارٌ لهــا بين الضلوع زفــيــر
لو بُثَّ حــزني في الورى لم يلتــفت لمصــاب قــيس والمصــاب كــثــيــر
طافت بشــهــر الصوم كــاســات الردى ســحــراً وأكــواب الدمــوع تدور
فــتناولت منهــا ابنتي فــتــغــيــرت جنات خــدٍّ شــانَهــا التــغــيــيــر
فــذوت أزاهيــر الحــيــاة بروضــهــا والقــدّ منهــا مــائس ونضــيــر
لبست ثياب السقم في حفر وقد ذاقت شــراب الموت وهو مــرير
جــاء الطبــيب ضــحى وبشّــرَ بالشــفــا إن الطبــيب بطبــه مــغــرور
وصف التــجــرّع وهو يزعم أنه بالبــرء من كل الســقــام بشــيــر
فــتنفــست للحــزن قــائلة له عــجِّلْ ببــرئي حــيث أنت خــبــيــر
وارحم شــبــابي إن والدتي غــدت ثكلى يشــيــر لهــا الجــوى وتشــيــر

وارأف بها قد حرّمت طيب الكرى ... تشكو السهاد وفي الجفون فتور

لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير

أماه قد كلّ الطبيب وفاتني ... مما أؤمل في الحياة نصير

لو جاء عرّاف اليمامة يبتغي ... برئي لردّ الطرف وهو حسير

ياروع روحي حلّها نزعُ الضنى ... عما قليل ورقها ستطير

أمّاه قد عز اللقاء وفي غد ... سترين نعشي كالعروس يسير

وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي ... هو منزلي وله الجموع تصير

قولي لرب اللحد رفقا بابنتي ... جاءت عروساً ساقها التقدير

وتجلّدي بازاء لحدي برهة ... فتراك روح راعها المقدور

أماه قد سلفت لنا أمنية ... ياحسنها لو ساقها التيسير

كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مذْ بان يوم البين وهو عسير

عودي الى ربع خلا ومآثر ... قد خلفت عني لها تأثير

صوني جهاز العرس تذكاراً فلي ... قد كان منه إلى الزفاف سرور

جرّت مصائب فرقتي لك بعد إذ ... لبس السواد ونفذ المسطور

والقبر صار بغصن قدّي روضة ... ريحانها عند المزار زهور

أماه لاتنسي بحق نبّوتي ... قبري لئلا يحزن المقبور

ورجاء عفو أو تلاوة منزل ... فسواك من لي بالحنين يزور؟

فلعلما أحظى برحمة خالق ... هو راحم بربّنا وغفور

فأجبتها والدمع يحبس منطقي ... والدهر من بعد الجوار يجور

بنتاه ياكبدي ولوعة مهجتي ... قد زال صفو شأنه التكدير

لاتوصي ثكلى قد أذاب فؤادها ... حزن عليك وحسرة وزفير

قسماً بغض نواظر وتلهفي ... مذ غاب إنسان وفارق نور

وبقبلتي ثغراً تقضّي نحبه ... فحرمت طيب شذاه وهو عطير

والله لا أسلو التلاوة والدعا ... ماغرّدت فوق الغصون طيور

كلا ولا أنسى زفير توجعي ... والقد منك لدى الثرى مدثور

إني ألفت الحزن حتى إنني ... لو غاب عني ساءني التأخير

قد كنت لا أرضى التباعد برهة ... كيف التصبر والبعاد دهور

أبكيك حتى نلتقي في جنة ... برياض خلد زيَّنَتْها الحور

ان قيل عائشة أقول لقد فني ... عيشي وصبري والإلهُ خبير

ولهي على توحيدةِ الحسن التي ... قد غاب بدر جمالها المستور

قلبي وجفني واللسان وخالقي ... راض وباك شاكر وغفور

متعت بالرضوان في خلد الرضا ... مازيَّنَتْ لك غرفة وقصور

وسمعت قول الحق للقوم ادخلوا ... دار السلام فسعيكم مشكور

هذا النعيم به الأحبة تلتقي ... لاعيش إلا عيشه المبرور

ولك الهناء فصدق تاريخي بدا ... توحيدة زفت ومعها الحور

وقولها غزلاً:

ملك الفؤاد وقد هجرْ ... بدر المحاسن مذ ظهرْ

عذب الرضاب مهفهف ... يسبى المتيم بالحور

ماحيلتي في حبه ... إلا الخضوع لما أمر

من منجدي وجفونه ... منها المحب على خطر

واحيرتي في حبه ... وأطول شجوي بالخفر

أشكو الغرام ويشتكي ... جفن تعذَّبَ بالسهر

ياقلب حسبك ما جرى … أحرقت جسمي بالشرر

رام الحبيب لك الضنى … لم ذا وأنت له مُقِرّ

لكنّ تعذيب الهوى … ما للشجي منه مفرّ

قابلته متثنيا … ناهيك من غصن خطر

وأتيته متبسّماً … كالبدر لما أن سفر

يابدر حكّمك الهوى … فاحكم ونفّذ ما أمر

ألق الوشاح وخلني … أصلى سعيراً في سقر

وعن العذار فلا تسل … ولأنت أولى من عذر

ودع الظلام على الضيا … واستر بطرّتك الغرر

سافت بها الثغر الذي … يفترّ عن غالي الدرر

واصدع بحسنك وافتخر … تيها بجيدك والطرر

فالشمس تخجل عندما … تبدو ويستحيي القمر

وقولها غزلاً أيضاً:

ملك الفؤاد وقد رشى … بدر تكنّى بالرشا

عذب الرضاب مهفهف … يسبى الشجيّ إذا مشى

ما حيلتي في حبه … إلا سعيرٌ في الحشا

فاطمة أسعد الخليل

هي بنت الأمير أسعد الخليل ، أحد أمراء الشيعة القاطنين في جبل عامل من أعمال سورية . وهو من كبراء (عائلة علي صغير) . ولدت سنة ١٢٥٦ من الهجرة وتوفي والدها وهي صغيرة جداً فتولى تربيتها شقيقها الأمير محمد بيك الأسعد، فلما بلغت سن التعليم سلمها للمعلمين لتدرس العلوم ،فتلقت جملة علوم في أقرب وقت . وكانت ذات عقل وفطنة ونباهة وكياسة ، فحفظت القرآن الشريف ودرست التفاسير الجمة ، وأخذت الدروس الفقهية على أشهر العلماء الشيعة ، ودرست النحو والصرف والبيان حتى فاقت نساء عصرها وأهل جلدتها ، فذاع صيتها في الآفاق . ولما بلغت الثامنة عشرة من سنيها تقدم اليها الأمير علي بيك الأسعد بالخطوبة فأنعم له شقيقها بها .

وكان الأمير المذكور حاكماً على بلاد بشارة ، ومحل اقامته قلعة تبنين التي هي قاعدة بلاد بشارة . وتلك القلعة بناهاهيوسنت أومر صاحب طبرية سنة ١١٠٧ ، وجعلها معقلاً لغزو صور ومايليها . وهي على مرتفع صعب المرتقى في وسط بقعة خصبة وعامرة بين الجبال تكثر فيها الكروم والثمار والغابات ، ويسميها الافرنج طورون . وكانت حصناً منيعاً مهماً ، وسمّي بها عائلة أصحابها . وسنة ١٥٥١ أقيم هونفردي صاحب تبنين عاملاً للملك بلدوين الثالث وقد فتح هذه البلاد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧ الموافقة لسنة ٥٨٣ هجرية ، وذلك أنه قد سير إليها ابن أخيه تقي الدين ففتحها وأخرج الإفرنج منها . وسنة ٥٩٤ كانت تبنين بيد الملك العادل بن صلاح الدين فرحل إليها الأفرنج وحاصروها ، وقاتلوا من بها وجدوا في القتال

ونقبوا الحصن من جهاتهم ، فلما رأى من بالقلعة ذلك خافوا على أنفسهم وأموالهم فنزل بعضهم يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليستلموا القلعة . فقال لهم بعض الأفرنج: إن سلمتموها استأسركم صاحب الجيش وقتلكم، فعادوا وأصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه . وكان الملك العادل قد كاتب أخاه الملك العزيز بمصر ،فسار مجداً حتى وصل الى عسقلان . فلما علم الافرنج ذلك وأن ليس لهم ملك أرسلوا إلى ملك قبرص وزوّجوه ملكتهم . وكان هذا محباً للسلم فكف عن حصار تبنين، ثم اصطلحوا مع الملك العادل . وتعاقبت الملوك والأمراء على تملك تلك القلعة مدة مديدة، حتى تملكها أمراء بيت علي صغير المذكورين الذين منهم الأمير علي بيك الأسعد . وكانت السيدة فاطمة من تلك العائلة، وانهم كانوا في ذاك الوقت يحافظون على نسبهم الشريف من أن يخلطوا به نسباً آخر من عامة الناس، ولايزوّجون إلا لبعضهم البعض . وكان الأمير علي بيك الأسعد إذ ذاك كبير تلك العائلة مقاماً ورفعة، وهو الحاكم الوحيد على بلاد بشارة من قبل الدولة العلية . وكان مشهوراً بالكرم وحسن السياسة، ومتصفاً بالعدل في أحكامه . ولما زفت إليه السيدة فاطمة نقلها من (الطيبة) التي هي بلد والدها ومسقط رأسها ومنبت صباها ومهد طفولتها إلى تبنين . فشق ذلك على شقيقها محمد بيك الأسعد وعلى أهلها وأهل بلدتها، لأنها كانت محسنة إلى الفقير من أهل البلد، ومعينة للمسكين وعائدة للمريض . وكان يحبها كل من في تلك البلدة، وكان شقيقها يعتمد عليها في بعض الآراء الادارية وغيرها على صغر سنها .

ولما نقلت إلى تبنين نالت بحسن آدابها وكمال عقلها ورقة لطفها ونضارة جمالها حظوة عظيمه عند زوجها ، حتى ملكت زمام الأمور فضلاً عن تملكها فؤاد زوجها . وتقلدت إدارة الأشغال المنزلية وفازت على كل نسائه وأهل ذاك النادي . فلما رأى منها علي بيك ذلك الحزم والعزم الذي يفوق حزم أعاظم الرجال أحب مشاركتها في الأحكام ، واعتمد على آرائها السديدة، فتعاطمت الأحكام مع زوجها

وشاركته بالرأي ، وحكمت وعدلت في حكمها بين الناس حتى أحبها الكبير والصغير والغني والفقير . ولم يغيرها في مركزها الحقيقي ماصارت إليه من الدولة والسلطة عن حبها لفعل الخير والاحسان الى الفقراء كما كانت تفعل في بيت أبيها، بل جعلت في دارها محلاً مخصوصاً لتربية الأولاد اليتامى وأولاد السبيل ، وشهرت بفعل الخير ، وقصدها المضطرون ولجأ اليها الخائفون . وكل ذلك لم يبذل لها حجاب ، بل كانت تتعاطى الأحكام من وراء الحجاب . وتنظر في الدعاوى داخل الحجاب وكان كل من في ديوان الأمير علي بيك يعجبون بأرائها وسمو أفكارها لدقائق من الأمور الغامضة من الأحكام الشرعية . ولم تزل كذلك الى سنة ١٢٨١ هـ ، وكان البيك المومى إليه قد تأخر عليه شيء من الأموال الأميرية لأن كرمه الحاتمي كان يضطره الى ذلك حيث إنه كان في دولة عظيمة . وكان إذا ركب يركب معه فوق المئتي فارس من حشمه وذلك خلاف الخدم والسياس والعمال والطباخين والفراشين ومايتبع دائرة الحريم من وكلاء وخدم وطباخين وغير ذلك . وكان في قلعة تبنين محلٌ للضيوف يسع ألفي شخص وفيه من المفروشات والأثاث مايليق بذلك القصر الفاخر ، كل غرفة بما يلزم لها لراحة الضيوف ، وله فراشون مختصون لخدمة الضيوف فقط والطباخون ، كذلك غير الذين يخدمون المقيمين من العائلة ، وكل هؤلاء الاتباع لهم الرواتب من دائرة الأمير المومى إليه . وكانت تأتي الشعراء والطالبون من كل صوب ، وهو لايرد أحداً بدون جائزة وتفد إليه الزائرون من كل المدن الشهيرة من كبار المتوظفين وغيرهم ، يمضون عنده فصل الصيف في القلعة لحسن هوائها وطيب مركزها وخصب تربة تلك الأراضي والجبال النضرة .

وقد كان له حساد وأعداء من أقرب الناس إليه قد أضمروا له الضغينة وألقوا الدسائس حسداً منهم لما ناله من المجد والرفعة ، وعملوا على إلقاء القبض عليه ومحاسبته على الأموال الأميرية . فحوسب في مدة ثمانية شهور وهو تحت الحجز ، وظهر طرفه مبالغ جسيمة . فقامت السيدة فاطمة في أثناء ذلك بأعباء هذا الحمل

الثقيل وتدبرت الأموال المطلوبة من بعلها، وقد جمعتها من مالها وأموال عائلتها، وباعت حليها وحلي كل امرأة في دائرتها، حتى تمكنت من سداد تلك الأموال المطلوبة. وكانت تفعل ذلك بكل حزم يفوق شهامة الرجال. وصدر الأمر بخلاصه في أواخر سنة ١٢٨١هـ. وبعد ذلك أراد الرجوع إلى وطنه من محل ماكان محجوراً عليه، وهي قلعة دمشق الشام، فدخلت سنة ١٢٨٢هـ التي جاء فيها الوباء العام المشهور (بالكوليرة). وهنالك قبل انتقاله الى وطنه أصيب بالكوليرة بدمشق الشام، ومكث ثلاثة أيام وتوفاه الله تعالى. وكان برفقته أخوها الأمير محمد بيك الأسعد، فأصيب الأمير أيضاً بهذا الداء ولحق بابن عمه. وكانت وفاتهما في أسبوع واحد تاركين لآلهما الحزن الطويل. فكانت نكبة عظيمة على السيدة فاطمة المذكورة، ونكبت تلك العائلة أيضاً بوفاة أميرها. فلازمت المترجمة الأحزان والأكدار بسبب فقد بطليها الزوج والأخ في آن واحد. وانقطعت الى (الزريرية)، وهي مزرعة من مزارع زوجها. فاقتسمت مايخصها ويخص بناتها الثلاث لأنها كانت ولدت له جملة أولاد من ذكور وإناث، فلم يعش لها إلا هؤلاء الثلاث بنات. وكان للأمير علي بيك أولاد من غيرها ذكور وإناث أيضاً، فضمتهم جميعاً بحسن إدارتها إلى بعضهم، وقسمت عليهم الأرض بحسب الفريضة الشرعية بدون أن تجعل للحكومة مدخلاً في ذلك. وشرعت في بناء دار لكل من أولادها وأولاد زوجها للسكنى. وأرضت الكل بحسن تدبيرها وسداد رأيها، وأتمت ذلك البناء على ماأحب الأولاد.

وخصصت من مالها شيئاً مخصوصاً لتربية اليتامى، وفك كرب المكروب. وقسمت وقتها بين سكناها (بالزريرية) و(الطيبة) عند شقيقها الأصغر الأمير خليل بيك الأسعد. ولم تزل حفظها الله على هذه السجايا الحسنة، وإلى الآن يضرب بها المثل في تلك الأصقاع.

ولها في الشعر شيء قليل. وأما في النثر فيشهد لها اليراع وتنطق لها الطروس.

مريم نحاس نوفل

هي ابنة جبرائيل نصر الله نحاس، ولدت في بيروت في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٦ (يناير)، وتهذبت في المدارس الإنكليزية السورية مدة ثمان سنوات بين خارجية وداخلية، فتعلمت اللغتين العربية والإنكليزية، مع التاريخ والجغرافيا والحساب والبيانو وجميع أشغال الإبرة واليد. وفي ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٧٢ اقترنت بنسيم أفندي نوفل في المركز الصيفي في جبل لبنان، إذ كان والدها وقرينها المذكور من متوظفي الحكومة اللبنانية.

وفي خلال سنة ١٨٧٣ شرعت بتأليف كتاب عام لإحياء ذكر بنات جنسها اللطيف، وسمته بكتاب «معرض الحسناء في تراجم مشاهير النساء». وهو يتضمن تراجم شهيرات النساء من الأموات والأحياء مرتباً على نسق القواميس الأفرنجية. وقد أعلنت في أكثر الجرائد عن هذا المشروع المبتكر، وصرفت باقي عزيمتها على الاشتغال به باذلة في سبيله كل ماأحرزته من الحلي والمجوهرات، حتى لايقال إن للرجال العلم والأدب، وللنساء الجمال والذهب.

وريثما أصبح القسم الأول منه على وشك النهاية رفعته إلى من اشتهرت بين بنات جنسها مؤسسة المدرسة السيوفية في مصر القاهرة التي كان فيها نحو الثلثمئة تلميذة يغتذين من ألبان معارفها وآدابها، حضرة الأميرة جشم آفت هانم أفندي، ثالث حرم سمو إسمعيل باشا الخديوي السابق. فأفاضت عليها من نعم القبول ماحمل مقدمته إلى نشر جميل الشكر والامتنان في جريدة «الأهرام» الغراء، ذاكرة ماوعدت به الأميرة من المكارم والاحسان.

وفي حزيران (يوليو) سنة ١٨٧٩ طبع بأمر دولتها مثال للكتاب يتضمن المقدمة وترجمة حياة الأميرة المشار إليها، وتراجم بعض النساء الشهيرات. وقد وزع في كثير من البلدان العربية. غير أن سَفَر الجناب الخديوي السابق مع آل بيته الكرام إلى نابولي في تلك السنة أوقف السعي بإتمام القسم الثاني من تراجم الأحياء. ومن ثم فإن الحوادث الغريبة التي أضاعت قسماً من المعدّات والصور التي حضرت لتزيين الكتاب اضطرت المؤلفة أن تصبر على مضض الأيام، وفي صدرها حزازات من حكم الزمان ومن كساد بضائع الآداب في البلاد الشرقية.

وهذه الأسباب والمسببات التي قضت بتأخير هذا الكتاب إلى حين من الزمن مابرحت تتردد مع الأيام في فكر المؤلفة حتى توفاها الله في صباح يوم الاثنين من شهر (أبريل) نيسان سنة ١٨٨٨ بعد أن أوصت قرينها بإتمام مشروعها الذي قضت بين محابره ودفاتره مدة العمر.

وقد رثاها حضرة الشاعر الأديب إلياس أفندي نوفل بقصيدة رنانة. فمن جملة ماقال فيها عن وصف الفقيدة:

كانت لها التقوى كأبهى حلة ... وصنيع أيديها أجلّ خضابها
وجمال عنوان أسرّ جمالها ... وبياض باطنها كلون ثيابها
وردت سماحة وجهها عن قلبها ... وبدت معارفها بطيّ كتابها

خولة بنت الأزور

وهي أخت ضرار بن الأزور، كانت مشهورة بالشجاعة والجمال. خرجت مع أخيها إلى الشام حين فتحها في خلافة أبي بكر الصديق. وكانت تفوق الرجال بالفروسية والبسالة، ولها وقائع مشهورة لايسعها المقام إذا أحببنا إيرادها، ولكنا نقتصر على البعض منها.

قال الواقدي في «فتوح الشام»: إنه لما أسر ضرار بن الأزور في وقعة أجنادين توجه خالد بن الوليد بطليعة من الجيش لخلاصه، فبينما هو في الطريق إذ مر به فارس على فرس طويل وبيده رمح، وهو لايبين منه إلا الحدق، وقد سيق أمامه الناس كأنه نار. فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس؟ وايم الله إنه لفارس. ثم اتبعه خالد والناس وسار الى أن أدرك المشركين، وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة، فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم، فما كانت إلا جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء وقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً، وقد عرض نفسه للهلاك ثانية واخترق القوم غير مكترث. وكثر قلق الناس عليه ولا يعلمون من هو، ومنهم رافع ابن عميرة ومن معه ظنوا أنه خالد، وقالوا: ماهذه الحملات إلا لخالد؟ وبينما هم على ذلك إذ أشرف خالد بمن معه، فقال له رافع: من الفارس الذي تقدم أمامك، فلقد بذل نفسه ومهجته. فقال خالد: والله إنني أشد إنكاراً منك، أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله. فقال رافع أيها الأمير: انه منغمس في عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً، فقال خالد: معاشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله. فأطلقوا الأعنة وقوّموا الأسنة وخالد أمامهم إذ نظر إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل في أثره. وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل. فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس المذكور الى جيش المسلمين فتأملوه

ورأوه، قد تخضب بالدماء. فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله، وأظهر شجاعته على الأعداء. اكشف لنا عن اسمك وارفع لثامك. فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم. فتصايحت الروم من كل جانب وكذلك المسلمون، وقالوا: أيها الرجل الكريم أميرنا يخاطبك وأنت تعرض عنه؟ أظهر لنا اسمك لنزداد تعظيماً، فلم يردّ عليهم جواباً. فلما بعد عن خالد سار إليه بنفسه وقال: ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ فلما ألح عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه قال: إنني أيها الأمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد زائدة الكمد. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور أخت ضرار المأسور بيد المشركين. وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأنه أسير، فركبت وفعلت مارأيت. وعند ذلك حمل المسلمون وحملت خولة، وعظم على الروم مانزل بهم من خولة بنت الأزور، وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة. وأما خولة فإنها جعلت تجول يميناً وشمالاً وهي لاتطلب إلا أخاها، وهي لاترى له أثراً ولا وقعت له على خبر، وجعلت تسأل عنه فلم يجبها أحد، ولم تر من المسلمين من يخبرها أنه نظره أو رآه أسيراً أو قتيلاً. فلما أيست منه بكت بكاء شديداً، وجعلت تقول: يا ابن أمي، ليت شعري في أي البيداء طرحوك، أم بأي سنان طعنوك، أم بأي حسام قتلوك؟ يا أخي أختك لك الفداء، لو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء. ليت شعري أترى أني أراك بعدها أبداً؟ فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لايخمد لهيبها ولايطفأ سعيرها. ليت شعري ألحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء. فبكى الناس من قولها عند سماعها ونياحها.

ومن وقائعها أيضاً ماظهر من بسالتها يوم أسر النسوة في وقعة صحورا، من أعمال الشام، وقد جمعت النسوة وقامت فيهن خطيبة. وكانت هي من ضمن المأسورات. فقالت: يابنات حمير وبقية تبع، أترضين لأنفسكن علوج الروم،

ويكون أولدكن عبيداً لأهل الشرك؟ فأين شجاعتكن وبراعتكن التي تتحدث بها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر؟ وإني أراكن بمعزل عن ذلك، وإني أرى القتل عليكن أهون من هذه الأسباب. ومانزل عليكن من خدمة الروم. فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية: صدقت والله يابنت الأزور، نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام. ووالله اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل، غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت. وإنما دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح. فقالت خولة: يابنات التبابعة، خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، ونحمل بها على هؤلاء اللئام، فلعل الله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب. فقالت عفراءبنت غفار: والله مادعوت إلا ماهو أحب إلينا مماذكرت. ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام، وصحن صيحة واحدة. وألقت خولة على عاتقها عموداً، وسعت من ورائها عفراء أم أبان بنت عتبة، ومسلمة بنت زارع، ولبنى، ومزروعة بنت عملوق، وسلمة ابنة النعمان، ومثل هؤلاء. فقالت لهن خولة: لاينفك بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة ولاتتفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت، واحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم. وهجمت خولة وهجم النساء وراءها قاتلن قتالاً شديداً حتى استخلصت النسوة من أيدي الروم وخرجت وهي تقول:

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

ومن قولها حين أسر ضرار في المرة الثانية في مرج دابق:

ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا ... فمن ذا الذي يا قوم أشغلكم عنا
فلو كنت أدرى أنه آخر اللقا ... لكنا وقفنا للوداع وودعنا
ألا يا غراب البين هل أنت مخبري ... فهل بقدوم الغائبين تبشرنا

لقد كانت الأيام تزهو لقربهم ... وكنّا بهم نزهو وكانوا كما كنّا

ألا قاتل الله النوى ما أمرّهُ ... وأقبحه ماذا يريد النوى منا

ذكرت ليالي الجمع كنا سوية ... ففرّ قناريب الزمان وشتتنا

لئن رجعوا يوماً إلى دار عزهم ... لثمنا خفافاً للمطايا وقبّلنا

ولم أنس إذ قالوا ضرار مقيد ... تركناه في دار العدوّ ويممنا

فما هذه الأيام إلا معارة ... وما نحن إلاّ مثلُ لفظ بلا معنى

أرى القلب لا يختار في الناس غيرهم ... إذا ماذكرهم ذا كر قلبي المضنى

سلام على الأحباب في كل ساعة ... وان بعدوا عنا وان منعوا منا

ثم بكت وقالت: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، فو الله لأخذنا بثأره إن شاء الله تعالى. ولما زحفت عساكر الإسلام إلى أنطاكية لأجل خلاص ضرار سار معهم النساء اللاتي لهن أسرى، وفي مقدّمتهن خولة بن الأزور وهي تنشد قولها من المراثي المبكيات:

أبعد أخي تلذُّ الغمضَ عيني ... فكيف ينام مقروح الجفون

سأبكي ما حييت على شقيق ... أعز عليَّ عيني اليمين

فلو أني لحقت به قتيلاً ... لهان عليّ إذْ هو غير هون

وكنت إلى السلوّ أرى طريقاً ... وأعلق منه بالحبل المتين

وإنا معشر مَنْ مات منا ... فليس يموت موت المستكين

وأنّي أن يقال مضى ضرار ... لباكية بمنسجم هتون

وقالوا لم بكاك فقلت مهلاً ... أما أبكى وقد قطعوا وتيني

ولما أسر ضرار المرة الثالثة في وقعة دير المسيح من أرض البهنسا، وسار المسيب ورافع وجماعتهما في طلبه تهللت فرحاً، وأسرعت في لبس سلاحها وأتت إلى خالد تستأذنه في المسير معهما. فقال لهما خالد: أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما. فقالا: السمع والطاعة. ثم ساروا حتى بلغوا منتصف الطريق وكمنوا قبل مرور القوم، فبينما هم كامنون إذا بالقوم قد أتوا محدقين بضرار، وهو متألم من كتافه وهو ينشد ويقول:

ألا بلِّغوا قومي وخولة أنني	أسير رهين موثق اليد بالقيد
فيا قلب مت همّاً وحزناً وحسرة	ويا دمع عيني كن معينا على خدي
فلو أن أقوامي وخولة عندنا	لألزم ما كنا عليه من العهد
ولو أنني فوق المجمل راكباً	وقائم حد العضب قد ملكت يدي
لأذللت جمع الروم إذلال نقمة	وأسقيتهم وسط الوغى أعظم الكد

فنادته خولة من مكمنها: قد أجاب الله دعاءك وقبل تضرعك، أنا خولة ثم كبرت وحملت بقية العسكر وحملوا حتى خلصوا ضراراً من الأسر. ووقائعها كثيرة، وقد أبلت بلاء حسناً في فتوح الشام ومصر، وعمرت طويلاً، وكانت وفاتها في أواخر خلافة عثمان بن عفان. فعلى مثل هذه يأسف الدهر، رحمها الله رحمة واسعة.

ليلى العامرية بنت مهدي بن سعد

صاحبة قيس بن الملوّح بن مزاحم، الشهير بالمجنون، ولم يكن مجنوناً إلا من العشق بدليل قوله:

يسـمـونني المجنون حين يرونني   نعم بيَ من ليلى الغـداة جنون

وكان سبب عشقه لها أنه مر على ناقة وعليه حلتان من حلل الملوك بزمرة من قومه، وعندها نسوة يتحدثن، فأعجبهن فاستنزلنه للمنادمة، فنزل وعقر لهن ناقته، وأقام معهن بياض اليوم. وكانت ليلى مع من حضر، وحين وقعت عينه عليها لم يصرف عنهاطرفاً. وشاغلته فلم يشتغل. فلما نحر الناقة جاءت لتمسك معه اللحم، فجعل يحز بالمدية في كفّه وهو شاخص فيها، حتى أعرق كفه فجذبتها من يده ولم يدر. ثم قال لها: أتأكلين الشواء؟ قالت: نعم، فطرح من اللحم شيئاً على الغضى، وأقبل يحادثها. فقالت له: انظر إلى اللحم هل استوى أم لا؟ فمدّ يده الى الجمر وجعل يقلّب بها اللحم، فاحترقت ولم يشعر. فلما علمت ما داخله صرفته عن ذلك، ثم شدت يده بهذب قناعها. ثم ذهب وقد تحكم عشقها من قلبه. وقد استدعته بعد هذا المجلس للمحادثة وقد داخلها الحب، فقالت له: هل لك في محادثة من لا يصرفه عنك صارف؟ قال: ومن لي بذلك؟ فقالت له: اجلس، فجلس وجعلا يتحادثان حتى مضى الوقت. ولم يزالا على ذلك حتى حجبها أبوها عنه وزوّجها من غيره كما هو مشهور في قصتها.

ومن رقيق شعر ليلى :

لم يكن المجنون في حالــة إلا وقـــد كنت كمــا كانـــا

لكنــــه بــاح بسرّ الهوى وإنني قـــد ذبت كتمـــانا

وقال له رجل من قومه : إني قاصد حيَّ ليلى ، فهل عندك شيء تقوله لها؟ قال : نعم أنشدها إذا وقفت بحيث تسمعك هذه الأبيات :

الله أعـلم أن النفس قــد هـلكت باليأس منك ولكني أمنّيها

منّيتك النفس حتى قد أضرّ بها وأبصرت خلفاً مما أمنّيها

وساعة منك ألهوها ولـو قصرت أشهى إليّ من الدنيا وما فيها

قال الرجل : فمضيت حتى وقفت بخيامها ، فلما أمكنتني الفرصة أنشدت بحيث تسمع الأبيات ، فبكت حتى غشى عليها ، ثم قالت : أبلغه عني السلام ، وأنشدت :

نفسي فداؤك لو نفسي ملكت إذا ما كان غيرك يجزيها ويرضيها

صبراً على ما قضاه الله فيك على مرارة في اصطباري عنك أخفيها

وقال رباح بن عامر : دخلت من نجد أريد الشام ، فأصابني مطر عظيم ، فقصدت خيمة رفعت لي ، فإذا بامرأة فسألتها التظليل ، فأشارت إلى ناحية فدخلت . ثم قالت للعبيد : سلوه من أين الرجل فقلت : من نجد ، فتنفست الصعداء . ثم قالت : نزلت بمن فيها؟ قلت : ببني الحريش ، فرفعت ستارة كانت بيننا وإذا بامرأة كأنها القمر . ثم قالت : أتعرف رجلاً فيهم يقال له قيس ويلقب بالمجنون؟ قلت : إي والله سرت مع أبيه حتى أوقفني عليه وهو مع الوحش لا يعقل إلا أن ذكرت له ليلى . فبكت حتى أغمى عليها ، فقلت : م تبكين ولم أقل إلا خيراً؟ فقالت : أنا والله ليلى المشؤومة عليه غير المساعدة له . ثم أنشدت :

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة ... متى رَحْلُ قيس مستقلٌ فراجع
بنفسي من لا يستقلُّ برحله ... ومن هو إن لم يحفظ الله ضائع

وكان آخر مجلس للمجنون من ليلى أنه لما اختلط عقله وتوحش جاءت أمه إليها فاخبرتها وسألتها أن تزوره فعساها أن تخفّف ما به، فقالت: أما نهاراً فلا، خيفة من أهلي، وساتيه ليلاً. فلما جن الليل جاءت فسلمت عليه ثم قالت:

أخبرت أنك من أجلي جننتَ وقد ... فارقتَ أهلك لم تعقل ولم تفق

فرفع رأسه إليها وأنشد:

قالت: جننت على رأسي فقلت لها: ... الحبُّ أعظم ممّا بالمجانين
الحبّ ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنّما يصرع المجنون في الحين
لو تعلمين إذا ما غبتِ ما سقمي ... وكيف تسهر عيني لم تلوميني

وقد امتحنته يوماً لتنظر ما عنده من المحبة لها، فدعت شخصاً بحضرته فسارّته، ثم نظرته قد تغير حتى كاد ينفطر، فأنشدت:

كلانا مظهر للناس بغضاً ... وكلٌّ عند صاحبه مكين
تبلّغنا العيون بما أردنا ... وفي القلبين ثَمَّ هوى دفين
وأسرار اللواحظ ليس تخفى ... وقد تغري بذي الخطأ الظنون
وكيف يفوت هذا الناس شيء ... وما في الناس تظهره العيون

فسرّ بذلك حتى كاد أن يذهب عقله، فانصرف وهو يقول:

أظن هواها تاركي بمضلَّة ... من الأرض لا مالٌ لديّ ولا أهلُ
ولا أحد أفضي إليه وصيَّتي ... ولا صاحب إلا المطيَّة والرحل
محا حبُّها حُبَّ الألى كنَّ قبلها ... وحلَّت مكاناً لم يكن حلّ من قبل

زينب ملكة تدمر

كانت آية زمانها في الجمال، ونادرة عصرها في الفضل المقرون بالجلال. تعرف عند الرومان (بزنوبيا) ملكة الشرق. تولت عرش تدمر بعد زوجها أُذينة المقتول عام ٢٦٧ للميلاد. وكان اشتد ساعدها ورسخت في البلاد وطأتها. شيَّدت في عاصمتها البناءات الباهية الأنيقة، وغرست في ضواحيها الرياض الزاهية، حتى تركتها جنة من الجنان، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان. ثم جنحت إلى المغازي والفتوحات، فدانت لشدة بأسها العباد، وفتنت ببديع حسنها وسحر أساليبها الملوك، فاسكرها الفوز والنصر، وبعثها على التمادي في طلاب العز والتماس الفخر. فبعثت بالسرايا والصوائف إلى مصر، فقهرتها ولقبت ذاتها بألقاب أهاجت عليها حسد مملكة الرومان فناوأتها. وزحف عليها أورليان قيصر الروم، فعبأت الجيوش وقابلته على مقربة من أنطاكية فحمص، فهزمها شر هزيمة، حتى اعتصمت منه بقاعدة بلادها تدمر. فأدار عليها رحى الحرب حصاراً وقتالاً حتى تداعت له أسوارها عنوة. فاعمل في أهلها السيف وفي قصورها التخريب حتى غادرها قاعاً صفصفاً، يأوي إليها البوم والقطا نادبة سالف مجدها المذكور وقديم عزها المأثور. وأما زنوبيا فأسرها أورليان وقادها إلى عاصمة الرومان ذليلة صاغرة، حيثما دخلها بموكب حافل وهي ترسف بقيودها الذهبية أمام

العواجل. وكان ذلك عام ٢٧٢ للميلاد، فسبحان الحي الباقي، من لا عاصم من يديه ولا واقي.

وأما تدمر فهي مدينة قديمة ذات آثار عظيمة، كانت تعرف بمدينة النخل. ويسمها الاقدمون بالميري، واقعة بين نهري الفرات والعاصمة، تبعد بنحو ٩٠ ميلاً عن حمص إلى الشرق، و ١٥٠ ميلاً عن دمشق إلى الشمال الشرقي. قيل إنها سميت باسم تدمر بنت حسان التي بنت المدينة في أيامها. والصحيح أنها من بناء سليمان كما ورد في التوراة. وقد زعم العرب أن الجن بنوها له، وعلى ذلك يقول النابغة:

إلا سليمان إذ قال الإله له   قم في البرية فاحددها عن الفند

وخبّر الجن أني قد أمرتهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ولم تنل تدمر عزاً مثل ما نالته في مدة زنوبيا. ولم يرجع إليها رونقها الأصلي أبداً، حتى صارت خرائب في هذا الزمان يأوي إليها البوم والغربان.

الباب الخامس
شهادات عن زينب فواز

١ – فوزية فواز

٢ – د. بثينة شعبان

٣ –إميلي نصر الله

٤ – محمد كاظم مكي

«يتردد اسمها على أقلام مؤرخي الأدب ونقاده، وقد يستشهدون ببعض المقاطع من كتبها، فإن راح أحدنا يسأل عن المصادر التي استقيت منها الشواهد، أصيب بخيبة أمل. وذلك لأن آثارها غير متوفرة، حتى في المكتبات الجامعية الكبرى، أو في المكتبات الوطنية العامة المشهورة والتي تعنى عادة بالتراث، ناهيك عن المكتبات ودور النشر العادية. ونتيجة لذلك فإن كل ما كتب عنها يبقى ناقصاً، لإن النتاج الزينبي غير موجود بين أيدي القراء، إلا في الصورة الناقصة وغير الكاملة التي أشرنا إليها.

ومن هنا تأتي أهمية الدور الذي قام به ولا يزال، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي وأمينه العام الباحث الأستاذ حبيب صادق، وهو المحافظة على التراث العاملي، والعمل على كشف كنوزه، ونشر أهم آثاره من المخطوطات القيمة، والعناية بنتاج أبنائه الثقافي.

وانطلاقاً من القاعدة الذهبية التي التزم بها المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، في جمع التراث الجنوبي وتوثيقه. كانت خطوته الأولى في إعادة نشر ما توافر لديه من آثار هذه الأديبة العاملية، فكان أول هيئة ثقافية في لبنان والعالم العربي، تقوم بمبادرتها إلى إماطة اللثام عن هذه الرائدة الجنوبية، فقد تم تحقيق أثرين أدبيين في مؤلف واحد، وهما رواية «حسن العواقب أو غادة الزهراء»، ومسرحية شعرية بعنوان «الهوى والوفاء». على أمل أن نتابع هذه المسيرة في المستقبل القريب، فنعيد نشر أثرين آخرين لها، هما «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»، والجزء الأول -وهو الجزء الذي توفر لدينا- من «رسائلها الزينبية»، لعلنا نوفق في نفض غبار النسيان عن آثار هذه الأديبة العربية الرائدة، والدفاع عن حقها في احتلال مكانتها الجديرة بها. لعلها تجد من التكريم ما يليق بها، كما يكرم سواها ممن عاصرها، إذ إن

من الباعث على الغبطة حقاً، أن تقوم مصر مؤخراً بتكريم أحد أدبائها -قاسم أمين- بمناسبة مرور مائة عام على صدور كتابه «تحرير المرأة» ولكن من المؤسف أن تهمل في الوقت نفسه، أديبة لمعت في سمائها، ونشرت معظم مقالاتها في مختلف المجلات والصحف المصرية، وطبعت نتاجها في ربوعها، ونالت شهرتها الواسعة في محيطها، تاركة فيها ما تبقى من آثارها مدفوناً هنا أو هناك في غياهب النسيان، وتحت غبار الغبن والإهمال».

الكاتبة فوزية فواز

عضو الهيئة الإدارية للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي

محققة رواية «حسن العواقب» ومسرحية «الهوى والوفاء»

«رغم أربعة عشر قرناً من الكتابات النسائية فإن أبحاثاً قليلة جداً قد وضعت حول هذه الكتابات من قبل النساء والرجال، وقامت بالمحاولة الأولى لتعريف هذا التراث النسائي كاتبة تحررية لبنانية في القرن التاسع عشر، وهي زينب فواز (١٨٤٦-١٩١٤) حيث يوثق عملها: «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» إنجازات أربعمائة وست وخمسين امرأة من الشرق والغرب، ويركز كتابها الثاني: «الرسائل الزينبية» على حقوق النساء في الثقافة والعمل والمواطنية بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والمهنية، كما كتبت مسرحية عنوانها: «الهوى والوفاء»، وأربع روايات طبعت منها روايتان ومازالت روايتان مخطوطتين.

وهي أول شخص عربي يكتب الرواية، مع أن المدارس في جميع البلدان العربية تعلّم التلاميذ أن رواية «زينب» عام ١٩١٤م، لحسين هيكل هي أول رواية في الأدب العربي. وقد نشرت رواية زينب فواز «حسن العواقب أو غادة الزهراء» عام ١٨٩٩م، أي قبل نشر رواية «زينب» بخمسة عشر عاماً. وبالإضافة إلى ذلك كانت فواز أول كاتبة عربية معاصرة عبرت عن نزعة نسائية تحررية عميقة وهادفة في حياتها الشخصية وكتاباتها، وكانت مطلعةً ودارسةً للأدب والعلوم والفنون. وأصرت على أن النساء جديرات على الأقل بالمساواة الاجتماعية والسياسية والتكافؤ الحقيقي للفرص. واللافت للنظر أنها كانت متقدمة جداً على الحوارات التحررية الدائرة في الغرب والشرق في تلك الفترة. كما كانت المرأة العربية الأولى التي اعتبرت نضالها التحرري جزءاً ليس فقط من نضال المرأة العربية وإنما من نضال النساء في العالم من أجل المساواة والحرية.

أعطت أمثلة من نساءٍ حكمن الرجال وأدرن الدول وقررن وضع القانون والتصرف وحشدن الجيوش وذهبن للمعركة وخضن الحروب».

١٠٠ عام من الرواية النسائية العربية

د. بثينة شعبان

«تتميز زينب فواز عن سواها من رائدات النهضة الفكرية النسائية في لبنان والعالم الغربي، بأنها مهدت لنفسها السبيل، ثم اجتازته وحدها.

من أرض الجنوب الخيِّرة طلعت مثل زهرة برية، حاملة كل ما تنطوي عليه أزهار البراري من تألق وحيوية.

وكنت خلال بحثي عن ملامح شخصيتها، أتساءل كيف بلغت تلك المرأة ما بلغته من وعي ونضج فكري، وهي القادمة من خلفية الفقر واليتم!.

لكن الفقر الذي وصفه غاندي بقوله: (أنه أسوأ أنواع العنف). لم يستطع أن يغلب نفساً تائقة إلى الحرية، وطامحة إلى المعرفة، بل يكاد خط القدر يبرز جلياً بين سطور حكايتها، وإلا كيف يمكننا أن نفسر المحطات التي انتقلت بينها، ووجدت عند كل منها، يداً تسندها، ثم تدفعها إلى الأمام، وإلى يد أخرى ترعاها، وتعنى بها، وكأنها تلقت وحياً خاصاً لتخدم هذه الفتاة الواعدة».

الأديبة اللبنانية
إميلي نصر الله

زينب من الرائدات الأوليات لتحرير المرأة، تعتبر مع عائشة التيمورية وجه النهضة النسائية في ختام القرن التاسع عشر . وهي استعداد عاملي توفرت له أسباب الفكر الحديث، فانطلقت مع النهضة خالصة من صور الماضي، تكتب وتؤلف كأبرز أعلام النهضة، ملتزمة في أدبها إصلاح مجتمعها فكان نتاجها في مجمله وعظي الطابع، شأن الكثير من مفكري عصرها. والحركات النسائية الناهضة اليوم تقطف ثمار نشاط زينب فواز ومثيلاتها.

محمد كاظم مكي

أديب عاملي

الباب السادس

صفحات من سيرة رائدات عربيات عاصرن زينب فواز ودورهن في حركة تحرير المرأة والحركة الأدبية

١ – ماريانا مراش
٢ – لبيبة ماضي هاشم
٣ – ملك حفني ناصف
٤ – نازك العابد
٥ – ماري عجمي

ماريانا مراش
١٨٤٨ - ١٩١٩

أول امرأة سورية تكتب في الصحافة، ولدت في مدينة حلب عام ١٨٤٨م في بيت يعنى بالفكر والأدب والقضايا الوطنية، تلقت قسماً من دراستها بالمدرسة الإنجيلية في بيروت ثم عادت إلى حلب، وتابعت تحصيلها العلمي بعد ذلك في أوربا، وبعد عودتها إلى وطنها اهتمت بكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية ونظم القصائد.

كتبت ماريانا في مجلة «الجنان» التي يصدرها المعلم بطرس البستاني، فلاقت تشجيعاً كبيراً منه، وكان هذا طبيعياً فهو أول من دعا إلى تعليم المرأة. وكذلك فعل خليل سركيس في جريدته «لسان الحال»، فشجع الفتاة ماريانا على مواصلة كتاباتها ودعوتها لتعيلم الفتيات وتنويرهن وتشجيعهن.

سبقت ماريانا عصرها في جعل بيتها ندوة أدبية للمثقفين والأدباء، ويبدو أن أكثر الأديبات بعدها قد سرنَ على غرارها.

كان يحضر هذه الندوة نخبة معروفة من أدباء وشعراء حلب المعروفين في حينه من نساء ورجال، يترددون على صالونها ليتناقشوا في مواضيع ثقافية وأدبية وفكرية متنوعة. بينما كانت ماريانا التي تجيد العزف بصورة جيدة على البيانو تتحف الحاضرين بمقطوعات موسيقية من عزفها وأنغامها الجميلة. إن ظهور امرأة شابة تكتب في الصحافة وتنظم الشعر وتعزف الموسيقا وتفتح صالوناً أدبياً، كان الوحيد من نوعه في الشرق في فترة حالكة الظلام من العهد العثماني.

يقول قسطاكي الحمصي، وهو واحد من الأدباء الذين دأبوا على حضور صالونها الأدبي: (كانت ماريانا عذبة المنطق، فكهة الأخلاق، طيبة المعشر، واسعة المعرفة، وكان منزلها في حلب مثابة الفضلاء، وملتقى الظرفاء والنبهاء، وعشاق الأدب). لكن المحتلين كانوا لها بالمرصاد، لمثل هذه النشاطات الفكرية والأدبية، فاسرف العثمانيون في التضييق على أحرار الفكر، وضغطوا على حملة الأقلام، لأنهم باتوا يشكلون خطراً عليهم، فاضطر العديد من هؤلاء المفكرين إلى مغادرة البلاد تاركين في الوطن أهلهم وأحبتهم. فأقفر الصالون من رواده.

وكان الأديب جبرائيل الدلال (أحد رواد الصالون) الذين غضب عليهم العثمانيون في طليعة من فروا إلى باريس، ومن هناك أخذ يراسل القسطاكي واصفاً له الحرية القصوى التي يتمتع بها الفرنسيون. وأنه بالرغم من كرهه للغربة، راضٍ بها مادامت تصون كرامته وتحمي شرفه من الأذى. يقول:

وإذا لم يكن هنا غير أن الحر فيها يعيش دون منازعْ

فهو يكفي حظاً لقلبي وإن سالت على غربتي غروبُ المدامعْ

لم تبق لي الأراذل في الشهباء من مأرب ولا من مطامعْ

وعندما يذكر الشهباء، لابد أن يذكر مريانا ربة الفضل والفضائل كما يقول، ومجالس الأدب اللطيفة في ردهتها الأنيقة، ويتحسر:

لا ولا أشتهي سواكم ولا أرغبُ فيها من بعدِ تلك الوقائعْ

غير قرب الفريدة اللطف ذات الصوْن والحسنِ والذكا والبدائعْ

ربة الفضل والفضائل (مريانا) التي ذكرُها يسرُ المسامع

والتي زانها الكمال إذ زان سواها الحليُ وسدلُ البراقعْ

أصدرت الأديبة ماريانا مراش ديوان شعرٍ صغير «بنت فكر» عام ١٨٩٣م، فيه قصائد بعضها في المديح وبعضها في الغزل والرثاء. مدحت نفراً من رجال الحكم من غربٍ وأتراك ليس بغية مال أو عطاء بل عن إعجاب وتقدير.

أما رثاؤها فيكاد ينحصر في أهلها وأقربائها، فرثت أخاها فرانسيس مراش المتوفى عام ١٨٧٣م بقصيدةٍ تشبه إلى حد ما رثاء الخنساء لأخيها صخر، فأخوها بالنسبة لها كان شيئاً كبيراً، كان عالماً وطبيباً وشاعراً، وكانت علاقتهما عميقة جداً وكان موته فاجعة بالنسبة لها.

وهي لا تخفي تأثرها بالخنساء، فتقول:

مالي أرى أعين الأزهار قد ذبلت ... ومال غصن صباها من ذرا الشجر

مالي أرى الروض مكموداً وفي كربٍ ... والماء في أنّةٍ والجو في كدرِ

مالي أرى الوُرْق تنعي وهي نادبةٌ ... فراق خلٍ وتشكو لوعةَ الغيرِ

نعم لقد سابق الأحياء أجمعها ... ونام ذا اليوم مطروحاً على العفرِ

من فقّه الناس في علمٍ وفي أدبٍ ... ونوّر الكل في شمس من الفكر

أبدى من الفضل ضوءاً لاخبوّله ... والشمسُ شمسٌ وإن غابت عن النظر

وإنه بحرُ علمٍ لا قرارَ له ... وقد حوى كل منظومٍ من الدرر

هذا الذي جابت الأقطارَ شهرتُه ... قد صار مطّروحاً في أضيق الحفر

خنساء صخرٍ بكته حينما نظرت ... إليه ملقىً بلا سمعٍ ولا بصر

أقلامُ أهلِ النهى ترثيهِ وا أسفي ... هل عاد من عودةٍ يا مفرد البشرِ

قد غاب شخصُك هذا اليومَ عن نظري ... جادت عيوني بدمعٍ سال كالمطر

فيا لدهرٍ خؤونٍ لا ذمامَ له ... قد راش سهماً أصابَ الفضل بالقدرِ

فحزن يعقوب لا يكفي لندبك يا ... ندباً تفرّد بالأجيال والعُصُرِ

ويلاهُ من حــزن قلبٍ نالَ غــايتــهُ قـد واصل القلب في غمٍ مدى الدهرِ
في لجةِ الحزنِ نفسي ضاق مسكنها من ذا يسلّي فـؤادي قلّ مـصطبـري

ومن شعرها الغزلي، تقول:

بذكـر المعــاني هامَ قلبي صــبــابةً فيا نور عيني هل أكونُ على القربِ؟
عسى الشمسُ في مرآكَ للعينِ تنجلي فـتنقل للأبصــار مــا حلَّ بالقلب

يقول الأديب الأستاذ عيسى فتوح في كتابه «أديبات عربيات» : لم يكن في وسع ماريانا أن تكون غير ماكانت، لأن طبيعة الفترة التي عاشت فيها فرضت عليها نوعاً من النمطية، وجعلتها تنحو منحى من تقدموها من الشعراء، وتسير على خطاهم التي رسموها دون أن تحيد عنها قيد شعرة. تكرر ذاتها، ليس لأن الجرأة كانت تعوزها فحسب، بل لأن الجمود السياسي فرض عليها شيئاً من الجمود الفكري.

وهناك نفحات من شعرها الجميل، حيث تقول:

شـرفُ الفـتى عـقلٌ يسـمـو على كل الورى فــينال غــايات المنى
وكـذاك حسنُ الخلق فـخـرُ مـسـود مـتـسـربلٌ بالعطف نعمَ المقـتنى
مــا كل من طلبَ الكرامــةَ نالهــا من رام صــيــد الظبيَ حلَّ به العنا
ذو المالِ يذهب ذكــرهُ مع مــالهِ لكـن ذكــر الفـــاضلينَ بلا فنا

بعد أن فقدت ماريانا والديها وأخيها شعرت بالوحدة، ولهذا اختارت الزواج. وساءت أوضاعها الصحية، و توفيت في حلب عام ١٩١٩ م تاركة تأثيراً أدبياً هاماً.

لبيبة ماضي هاشم
١٨٨٢ - ١٩٥٣

أديبة وباحثة لبنانية، ولدت في بيروت- الخندق الغميق عام ١٨٨٢م، تلقت دراستها في مدارس الإرساليات الإنكليزية والأميركية، وتتلمذت على يد الشيخ إبراهيم اليازجي.

نزحت مع أسرتها إلى مصر في مطلع القرن العشرين، واتجهت إلى العمل في الصحافة، فأصدرت في منتصف تشرين الأول عام ١٩٠٦ م مجلة «فتاة الشرق»، ركزت فيها اهتمامها على قضية المرأة وتربيتها وتعليمها وعملها.

عينتها الجامعة المصرية خلال عامي ١٩١١ و١٩١٢م أستاذة في القسم النسائي محاضرة في التربية. وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية دعيت إلى سورية، وعينت عام ١٩١٩م مفتشة في وزارة المعارف السورية، وهو منصب رفيع في ذلك الوقت، لم يسبق لامرأة أن تقلدت مثله. ولما سقطت حكومة الملك فيصل الأول إثر تهديد القوات الفرنسية الغازية بقيادة الجنرال غورو ودخولها دمشق عنوة بعد معركة ميسلون عام ١٩٢٠م، غادرت لبيبة هاشم إلى سنتياغو عاصمة تشيلي وأصدرت فيها مجلة «الشرق والغرب» في ١٥ أيلول عام ١٩٢٣م. وفي السنة التالية عادت إلى مصر واستأنفت إصدار مجلتها الأولى «فتاة الشرق».

قامت لبيبة هاشم بتأليف عدد من القصص التاريخية والاجتماعية والتربوية القصيرة نشرتها في مجلتها، فساهمت في نشر الوعي في أوساط النساء منها:

«حنك الحب»، «الفوز بعد الموت»، «جزاء الخيانة»، «جزاء الإحسان»، «شهيد المرؤءة والوفاء»، «شيرين».

كان لدى لبيبة هاشم هموم نسائية منذ البدء، فكان باكورة إنتاجها الأدبي رواية «الغادة الإنكليزية»، ومن ثم «قلب الرجل» ١٩٠٤م، وهي رواية اجتماعية غرامية تحمل طابع الدفاع عن المرأة. تدور أحداثها في لبنان أيام الفتنة الطائفية عام ١٨٦٠م. شاب مسيحي يقع في غرام فتاة درزية أنقذها من الموت. تصف لبيبة البطلة بالمخلصة والوفية، والبطل بالتردد والخداع وقلة الوفاء، كتبتها بأسلوب قصصي مشوق، وصورت البيئة والأجواء العامة المحيطة بالأحداث تصويراً متقناً، واعتمدت على الحوار. وتعدُّ هذه الرواية من الروايات الاجتماعية الجيدة التي صدرت في تلك الفترة.

لم يشتهر صالون الأديبةلبيبة هاشم في القاهرة على نطاق واسع. وقد كانت تستقبل فيه عدداً من الأدباء والكتّاب والشعراء من الجنسين، وأيضاً كتّاب مجلتها «فتاة الشرق».

كتبت لبيبة هاشم العديد من المقالات في «فتاة الشرق» لعل أهمها:

«القمار والزواج»

تحدثت فيها بإسهاب عن القمار، هذه العادة الرذيلة (التي تفشت في أوساط الطبقات البرجوازية، تاركين زوجاتهم في مقتبل العمر، وقد لبسن من الحسن أكمل سربال، تستعر صدورهن بالزفرات... وقد هجر أجفانهن النعاس).

يلاحظ أن سبب اهتمامها وكتابتها عن هذه العادة القبيحة، هاجسها عن المرأة ما يجلبه القمار من تعاسةٍ للعائلة عموماً، وللمرأة خصوصاً، وللمجتمع من

ويلات، تقول: (وإني لأجد للمقامر عذراً إذ قصر عن تصوير حال قرينته ومقدار شقائها، متى كان مكباً على مائدة القمار، تاركاً إياها بين أيدي الهواجس، تستعد لما سوف تأتيها به الخسائر والأضرار، بل لا ألومه إذا بهره بريق الأصفر الغرار. فلم يفطن إلى أن تلك جناية يجنيها، ووديعة لأولاده يتصرف بها، ولكني أعجب كيف يجوز له سرقة الغير على الصورة التي يسمونها المقامرة، وهو يرى من نتائجها في سواه من المقامرين ما لا ترضاه أحط النفوس وأحط الأخلاق، وكفاه نذيراً ما يراه من ضياع أموالهم وشقاء أسرهم، وتعريضهم مستقبل أولادهم على أثرهم، وتمهيدهم السبل أحياناً لنسائهم للانضمام إلى حلقة القمار.

فلا أهلاً بعصرٍ جر على الشرق أمثال هذا الداء، ولا مرحبا بفرنجةٍ اقتبسنا عنهم هذه الخلة الشنعاء، وسلام على زمنٍ قضاه أجدادنا في بسطة العيش وصفو المسرات، وسقياً لأيامٍ سادت فيها الجهالة، ولكنها امتازت بالفضل وصيانة الذات، بل تعساً لدهرٍ غدونا نشكو فيه الحاضر ونتلهف على ما فات، فقد قنعوا من دهرهم بالراحة ورخاء البال... حتى أصبح الزواج في عصرنا مثلاً يضرب في اجتناء الشوك دون الأزهار، وباتت بناتنا هدفاً لسهام الذل وشفار البوار، وغدا شباننا يتسابقون في مضمار هذا التقليد الذي أخف ما فيه من الويلات عار القمار.

وليت تفشي هذا الداء قد وقف عند حد الرجال، بل إن عدواه تناولت قسماً كبيراً من ربات الحجال، فغدون لا يلذ لهن إلا الاشتغال بأسبابه، ولا يفكرنَ من الواجبات إلا في إتقان أبوابه).

ملك حفني ناصف

١٨٨٦ - ١٩١٨

تحتل ملك حفني ناصف مكانة متميزة بين رواد فكر النهضة العربية، فهي من بين الأوائل الذين تصدوا لقضية المرأة في بدايات القرن العشرين. ورغم التجاهل الواضح لاسمها وإنجازاتها في محافل الفكر والثقافة، فهي من أعظم من عملوا فعلاً في سبيل تحسين أوضاع المرأة في المجتمع.

ولدت ملك حفني ناصف في القاهرة عام ١٨٨٦م، ونشأت في منزل يهتم بالعلم والمعرفة. أبوها حفني ناصف كان مفتشاً لوزارة المعارف، ومن تلاميذ جمال الدين الأفغاني، ومن أصدقاء الشيخ محمد عبده، مما أتاح لها في سن مبكرة الاستفادة من علم وتجربة رواد الفكر الحديث، وأعطاها القدرة والحكمة على مواجهة كل الانتقادات التي كانت تتعرض لها بسبب خروجها على المألوف، أو مخالفتها للسلوك المتفق عليه، والمقبول من المجتمع آنذاك. فلم تكن ملك نموذجاً للمرأة التقليدية، تزوجت بأحد شيوخ القبائل، ومن هنا جاء اسمها المستعار الذي كانت توقع به كتاباتها (باحثة البادية).

كانت أول فتاة عربية مصرية سمح لها بالتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية في مصر، وذلك عام ١٩٠٠م، وأولى الناجحات، في أول امتحان جرى لتخريج المعلمات. اشتغلت بالتعليم، واستفادت من مهنتها لتنشر الوعي النسائي، فضلاً عن الترغيب بالكتابة والأدب، ثم أدركت لاحقاً ضرورة تطوير خطابها باتجاه قضية المرأة وزيادة اهتمامها بهذه القضية.

كانت تستفيد من مكتبة أبيها الواسعة، فتقرأ عن شهيرات النساء في الإسلام، في كتاب «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» للكاتبة زينب فواز، ولكتابٍ آخرين غيرها.

استهلت ملك مشاركتها في الحياة الثقافية، بكتابة مقالاتٍ في مجلة «الجريدة»، وأطلقت على مقالاتها «النسائيات» التي صار لها مع مرور الوقت قاعدة عريضة من القراء. وقد أثارت مقالاتها جدلاً واسعاً بين العديد من المهتمين بالثقافة، وتحمس الكثيرون للمساهمة في التعليق على ما تكتبه الأمر الذي أدى إلى توسيع دائرة تأثيرها في الحياة العامة.

كانت ملك ذات نزعة مصرية شرقية، تدعو لإيجاد مدنية خاصة بالشرق مع الاستفادة من إنجازات التمدن الغربي الحديث.

تصف الكاتبة ملك حال المرأة في زمنها بأنه شبيه بحال المرأة في عصر الجاهلية لا ينقصه سوى وأد البنات، تقول:

(إن الانقباض الذي نظهره عند مستهل الأنثى، يؤثر في الطفلة رضوخاً إلى الذلة ورئماناً إلى الضعة. فتشب الفتاة واجدة الفرق العظيم بينها وبين أخيها فتعتقد في نفسها أنها أحطّ شأناً وأدنى مرتبة. فلا تطلب من المعالي ما يطلبه أخوها، ولا تتبسط لنفسها إلى ما يرفع شأنها أو جنسها، وتضع نفسها حيث نضعها).

كل ذلك بدعوة أن الذكر يحفظ اسم العائلة. خلافاً لذلك، تجد الكاتبة أن الغربيين لا يفرقون البتة بين الصبي والبنت.

ألقت ملك ناصف أولى محاضراتها في دار «الجريدة»، والثانية في «الجامعة المصرية»، ثم في الجمعيات النسائية المختلفة الموجودة آنذاك.

ساهمت في تأسيس النهضة النسائية في مصر من خلال العديد من الجمعيات المختصة بنهوض المرأة «اتحاد النساء التهذيبي».

شاركت باحثة البادية بقدر ما أتاحته ظروفها، وما أتاحته لها الحياة، في العمل السياسي. فعندما اعتدى الطليان على طرابلس الغرب عام ١٩١١م وهبَّت مصر لنصرتها، شكلت باحثة البادية «جمعية التمريض» على غرار الصليب الأحمر (قبل تأسيس الهلال الأحمر بقليل) لإرسال الملابس والأغطية والأدوية، وكذلك المساعدات المالية.

وعندما توفيت الكاتبة ملك حفني ناصف، وهي شابة في عمر الزهور ولم تبلغ الثانية والثلاثين في ١٧ تشرين الأول عام ١٩١٨م، امتلأت الصحف والمجلات بصفحات كاملة لتأبينها. وأقيم بالجامعة المصرية أكثر من حفل تأبيني لها. ورثاها شاعر النيل حافظ إبراهيم في مرثية تقع في واحد وخمسين بيتاً.

كانت ملك صاحبة رسالة تختلف قليلاً، وأحياناً كثيراً، عن بعض الاتجاهات التي سادت الفكر المصري الحديث. كانت مثل الأغلبية من رواد الإصلاح، تعي أهمية دور المرأة في المجتمع للخروج من ظلمات الجهل والتبعية. فأخذت تبحث عن أفضل الحلول لتحقيق هذا الهدف. وواجهت أيضاً مثل بقية مفكري عصرها، المشكلة الرئيسة المتمثلة بهذا الجيل في معادلة التراث والمعاصرة. لقد اجتهدت كما فعل الطهطاوي ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفي السيد وطه حسين وآخرون، كي تجيب على السؤال الملح؛ كيف نأخذ بسبل التقدم المقدمة لنا من الغرب، دون أن نفقد هويتنا، ودون أن نتخلى عن تراثنا؟

اعتبر البعض أن الدعوة إلى تعليم الفتاة التي أطلقها المصلحون والنساء والساعيات إلى التحرر، تقليداً للغربيين أكثر منها استجابة حضارية نابعة من ضمير المصلح العربي، ومنهم باحثة البادية ملك حفني ناصف، عكس نبوية موسى التي سخَّرت شعرها لتأييد رسالة تعليم الفتاة، ودعمها للتحضر واللحاق بالغرب.

كانت تتفق أحياناً مع أراء معاصريها، وتختلف معهم وتحاور أفكارهم أحياناً أخرى، فهي تعتقد أنه على الرغم من تبني رواد النهضة لقضية المرأة، فإنهم

صاغوها مشبعة بأفكارهم ومنطلقاتهم، وجاءت ملك لتركز على أهمية إتاحة الفرصة للمرأةلتقرير مصيرها والبت في شؤونها والتعبير عن وجهة نظرها في كل الأمور، وترى أن السبيل الأوحد لتمكين المرأة من تكوين وجهة نظر خاصة بها هو التركيز على التعليم. (إذ بدون التعليم لا تتحرر المرأة ولا تخرج من شرنقتها).

وقد انتقدت ملك قاسم أمين الداعي لفكرة اقتصار تعليم الفتيات على المرحلة الابتدائية فقط. بحجة أنها لن تحتاج إلى قدر أكبر من التعليم لإدارة شؤون منزلها وتربية أولادها. فطالبت بتعليم المرأة كل مراحل التعليم، وأصرت على مبدأ الحرية الشخصية، وناقشت فكرة تقسيم الأدوار لتؤكد أنها ظاهرة تاريخية وليست ظاهرة طبيعية، وأن وضع المرأة الحالي المرتبط بالمنزل وشؤون الأولاد ليس مرهوناً بطبيعة المرأة الأزلية، وإنما لفترة تاريخية تم استبعاد المرأة من الحياة العامة. أما عن تحليلها لمقولة المرأةأضعف من الرجل وأنها لا تستطيع تحمل المسؤوليات التي يتحملها، فتقول[1]: (وما ضعفنا الآن عن مزاولة الأعمال الشاقة، إلا نتيجة قلة الممارسة لتلك الأعمال، وإلا فإن المرأة الأولى كانت تضارع الرجل شدة وبأساً. أليست المرأة القروية كأختها في المدينة؟ فلماذا تفوق الأولى الثانية في الصحة والقوة؟ وهل ترتبن في أن امرأةً من المنوفية تضم أعظم رجل من رجال الغورية لو صارعته؟).

وتعارض ملك دعوة قاسم أمين لسفور المرأة، وتقول: (علموا البنت ثم اتركوا لها الاختيار) وتبرر ذلك بأن نساء مصر متعودات على الحجاب فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع، رأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزي، وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغيير الفجائي، وتكون النتيجة شراً على الوطن. وفي مرة أخرى في نفس المقال تضع شرطاً مستحيلاً لذلك: (إن خروجنا بغير حجاب لا يضر في نفسه إذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال، وأظن هذا مستحيلاً أو بعيد الحصول).

---

(١) - النسائيات ص ١٣١ - ١٣٣ - ١٣٧. بلاغة النساء ص ٤٠ - ٤٢ - ٤٩.

ربما يوجد في أساس موقف ملك الخشية والتعجل في تقليد المظاهر الخارجية للمدنية الغربية على حساب الاستفادة الواعية من أسس تقدمها. ففي رسالة موجهة إلى مي زيادة نشرت في «المحروسة» و «الجريدة» تلخص موقفها من سفور المرأة، فتؤكد أنها، لا ترى أن المجتمع على استعداد لتقبل هذا التغيير المفاجئ بطريقة صحية. وهي إن كانت، قد انتقدت السفور لا حباً في الحجاب، وإنما لأنه جاء نتيجة تقليد عادات الغرب، ولأنه جاء قبل أن تتسلح المرأة بالعلم، فتختار لنفسها الزي الذي ترضاه، لا الزي الذي يفترض أنه أفضل لنا. ففي حجابها وسفورها تظل المرأة رهن إرادة الرجل ورهن أهوائه المتغيرة.

وهذا الموقف المتحفظ الشديد إزاء نقل مظاهر المدنية الغربية، يعد سمة من السمات المميزة لموقف ملك من النهضة، وهذا ما جعلها في موضع الصراع مع بعض مفكري العصر. (مقالات موسى سلامة الذي طالب باستبدال اللباس العربي بالغربي). وتعبر عن رفضها لهذا الذوبان بينما تصر على الاستفادة من دروس التقدم الغربي مع مراعاة مبدأ الملاءمة، ومع أخذ مقتضيات حضارتنا وواقعنا بالحسبان.

نلاحظ في أراء باحثة البادية، سواءٌ بخصوص الحجاب، أو بخصوص تعلم المرأةً، تشابهاً مع ما قرأناه لزينب فواز، كلتاهما أقرب إلى المحافظة في الناحية الأولى، وأقرب الى الثورية في الناحية الثانية، غير أن هذا الموقف المعتدل من الحجاب، لم يمنع شبلي الشميّل[1] من أن يقدر كتابات باحثة البادية تقديراً عالياً، لدرجة أنه رأى لها فضلاً في الدعوة لتحرير المرأة، لا يقل عن فضل قاسم أمين. فعدم المطالبة بإلغاء الحجاب كلياً، هو رأي في نظر البعض وجيه، أولئك الذين يقولون إن الطفرة محال، ويخشون الانتفاضات العنيفة، فيطلبون الإصلاح بالتؤدة

---

(٢) – رسالة من شلبي شميّل إلى ملك حفني ناصف تعود إلى عام ١٩١٠م كما يبدو في النسائيات ص ١٧١-١٧٢.

واللين خوفاً من أن تصعيب المطلب يحول دون بلوغه. ومهما يكن من ذلك، فإن هذا الرأي لا ينافي رأي الطالبين اليوم السفور المطلق، وما هو إلا حذر لفظي إن رفع الحجاب المعنوي عن العقل فلابد أن يؤدي إلى رفع الحجاب الحسي عن الجسم، كما أن طلب رفع الحجاب الحسي دفعةً واحدة لا يرضي به حتى المحجوب نفسه إذا لم يرفع حجاب الجهل عن عقله أيضاً.

وترد ملك على دأب بعض رواد النهضة، على مخاطبة المرأة على أنها المسؤولة الأولى عن انحطاط الأمة وتخلفها، فنقول: (قطع رجال الإصلاح في مصر شوطاً بعيداً للتنقيب عما يجعل الأمة في مصاف الأمم الراقية، فلم يظفروا بضالتهم، وبعد لأي ألقوا الذنب في تأخُّر الأمة المصرية على المرأة المسكينة، وقالوا: لو كانت المرأة المصرية راقيةً لأخرجت للعالم أبناء ناشطين، وأزواجاً حكماء، وأسراً منظمة، و وقفوا عند هذا الحد ينتظرون ما يقيضه لهم الدهر من ارتفاع شأن المرأة ورقيها).

لا تنفي الكاتبة ملك مسؤولية المرأة تجاه المجتمع، وتؤكد المسؤولية التي تقع على عاتق الرجل، فهو المسؤول الأساسي لأنه يملك زمام الأمور، وهو المتصرف في شؤون المرأة بحكم الوضع غير المتساوي بين الجنسين، فإذا صلح صلحت أسرته، وإذا فسد أدى بأسرته إلى التهلكة.

نازك العابد

١٨٨٧ - ١٩٥٩

(حاربت في طليعة الجيش العربي السوري ضد الفرنسيين، وخرجت إلى ميسلون مع وزير الحربية آنذاك الشهيد يوسف العظمة. وعندما جرح أسلم الروح بين يديها. منحتها حكومة الملك فيصل رتبة نقيب فخرية في الجيش، فكانت تتفقد الجنود بثوبها العسكري، وكلها ثقة واعتداد وإيمان برسالتها).

نازك العابد، رائدة في تاريخ النضال والثورة ونهضة المرأة المعاصرة، ولدت في دمشق إبان السيطرة العثمانية على بلاد الشام عام ١٨٨٧م، كان أبوها من أعيان دمشق، ثم محافظاً للكرك والموصل في عهد العثمانيين.

ورغم انحدار نازك من عائلة عريقةٍ ميسورة ومترفة، إلا أنها لم تنسجم مع هذا الواقع وما يحمله من رغادةٍ وترف، وخيلاء وزهو بالعثمانية الحاكمة، الذي كان يفيض فيه أمثالها. لم تكن تهمها المظاهر البراقة والعناية الخاصة بالشكل، بل كانت منذ طفولتها جديةً متفتحةً تشعر بوطأة المعاناة الكبيرة التي يعيشها شعبها، نتيجة ضغط الحكم التركي، والتمايز الطبقي والاجتماعي بين أبناء الشعب.

اعتزلت منذ شبابها الأجواء الرغيدة التي تعيشها الأسرة، وانزوت في حجرةٍ متواضعة، بنتها من الطين والآجر في حديقة البيت الكبير، وحشدت فيها أشياءها ومتاعها وكتبها المدرسية وكتباً متنوعة أخرى لا يهتم بها من كان في مثل عمرها. كانت تميل إلى الاستقلال والحرية والتأمل.

تلقت مبادئ اللغتين العربية والتركية في المدرسة الرشدية بدمشق، ثم في المدرسة الرشدية بالموصل. درست بعض اللغات الأجنبية في معاهد خاصة، وتعمقت في اللغة العربية على يد بعض الشيوخ في زمانها.

وعندما كانت في مدرسة الرشدية في الموصل كانت نظرتها إلى المعلمات التركيات نظرة حذر وتمرد، حيث كن يتعالين على الطالبات، وينلن من اللغة العربية والشعور الوطني لديهن. ويقال إنها شكلت تجمعاً من الطالبات زميلاتها في الموصل لمواجهة غطرسة وتبجح المعلمات التركيات. كانت تشعر وزميلاتها أنهن أقوى من الغطرسة التركية في ذلك العهد. ولكن القوانين الجائرة وروح التعسف التي كانت تحكم البلاد، تمكنت من إقصاء الطالبة عن مدرستها. بعد ذلك نُفيت عائلتها وهي معها إلى أزمير، وبقيت في تركيا حتى عادت مع أهلها من المنفى إلى الوطن.

اتصلت نازك بالأدبية والمناضلة ماري عجمي[1]، صاحبة مجلة «العروس»، واتفقت معها على التعاون والنضال المشترك ضد الاستعمار التركي والانتداب الفرنسي، وأن تكون «العروس» منبراً حراً لمواجهة وفضح الممارسات القمعية على البلاد. وكذلك استفادت من مجلة «الحارس» منبراً لكتاباتها وكانت تعنى بشؤون المرأة عنايةً خاصة.

سعت نازك عام ١٩١٤م إلى إنشاء أول جمعية نسائية عربية في دمشق، بالاضافة إلى مدرسةٍ تساعد على تنوير الفتيات والنساء، داعيةً إلى تعليم البنات وتحريرهن من الجهل والأوهام والتقاليد البالية التي كانت تسيطر على عقولهن. وكانت هذه مبادرة هامة جداً، في وقت لم يكن فيه للبنات مدارس حكومية إلا مدارس ابتدائية معدودة ودار للمعلمات. وقد استجابت لهذه الدعوة طائفة من النساء السوريات النشيطات اللواتي يتمتعن بوعي وإدراك جيدين.

(١) - «أدبيات عربيات». الأديب عيسى فتوح.

لكن الحرب العالمية الأولى وقعت في شهر تموز من ذلك العام. ومن الطبيعي أن تتغير الأمور كلها ويقضى على كل نشاط. بالإضافة إلى أن جمال باشا السفاح نفاها ثانية مع أسرتها إلى إستانبول.

عادت نازك مع عائلتها من المنفى في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتوقيع الهدنة عام ١٩١٨م، واستقرت في دمشق باذلة كل الجهد من أجل إحياء ما كانت قد بدأت به من نشاط نسائي ووطني. فطالبت بحقوق المرأة السياسية، ومساواتها بالرجل، وحثها على النضال السياسي والاجتماعي.

ولما جاءت اللجنة الأمريكية برئاسة (كراين) لاستفتاء السوريين في انتداب الدول، وحقيقة النقمة عليه وعلى ممثليه وأعوانه. برزت وفود الغاضبين وفي مقدمتهم نازك العابد، وقد أعدت مظاهرة احتجاج كبيرة خرجت فيها النساء هاتفات ضد الاحتلال ومطالبات باستقلال البلاد، وقد خطبت نازك في المظاهرة رافضة باسم الجموع، الانتداب بكل أشكاله، ودافعت بشدة عن حرية شعبها. وكانت الناطقة باسم المرأة السورية.

ولما استقبلت سورية بعد الحرب العالمية الأولى عهد الملك فيصل، تفاءلت نازك ببزوغ فجرٍ جديد على الأمة العربية. فكانت تكتب في الصحف السورية والعربية مقالات قومية تحررية.

وكان أول عملٍ قامت به، تأسيس جمعية «نور الفيحاء» بالتعاون مع عددٍ من سيدات دمشق وفتياتها. وانطلقت جهودها الخيرة، باهتمامها بمصير بنات الشهداء اللواتي فقدن أباءهن في الثورة التي قادها الشريف حسين عام ١٩١٦م، فانصرفت إلى الاهتمام بهن ورعاية شؤونهن، وأنشأت باسم هذه الجمعية «مدرسة بنات الشهداء العربية» وتولت إدارتها.

أصدرت نازك ورفيقاتها عام ١٩٢٠م مجلةً أسمتها «نور الفيحاء»، وهي مجلة نسائية أخلاقية أدبية. صدر منها تسعة أجزاء فقط ثم توقفت. كانت المجلة تدعو لنهوض المرأة العربية والمطالبة بحقوقها السياسية، وتحمل صوراً من التطور الاجتماعي والوطني. وقد كتب في المجلة العديد من المفكرين والأدباء. وقد طالبت المجلة الحكومة العربية الأولى بإعطاء المرأة السورية حقها في الانتخاب، وقد جرى بحث هذا الموضوع في المؤتمر السوري الذي عقد في دمشق لتقرير المصير حول الانتداب الدولي وحرية البلاد العربيةووحدتها.

شاركت نازك في إنشاء فرع للصليب الأحمر الدولي في سورية باسم جمعية «النجمة الحمراء»، التي أصبحت تدعى في ما بعد «الهلال الأحمر» وقد عينت أول رئيسة له، وكلفت بوضع حجر الأساس لمشفى جرحى الحرب، فهيأته في بضعة أسابيع واختارت بنفسها أطباءه وممرضيه وموظفيه.

غير أن فرحة السوريين باستقلالهم بعد الحرب لم تطل، فقد تآمر الحلفاء لانتزاع هذا الاستقلال. ولما همّ الفرنسيون باقتحام دمشق، وإنذار الملك فيصل بالخروج منها، غضب الشعب وهبّ برجاله وشبابه ونسائه، واندفعت أفواج من المناضلين والثائرين إلى السلاح، لمقاومة المغتصبين.

كانت نازك وعدد من رفيقاتها في طليعة الجيش العربي السوري، وخرجت إلى ميسلون مع وزير الحربية آنذاك الشهيد يوسف العظمة. وعندما جرح أسلم الروح بين يديها.

لم تكن نازك تقاوم من خلف القناع، بل تقدمت الصفوف سافرةً عن وجهها مصممة على القتال مع أفواج المقاتلين. وقد منحتها حكومة الملك فيصل رتبة نقيب فخرية في الجيش.

بعد انتهاء معركة ميسلون، وخروج الملك فيصل، واحتلال الفرنسيين لسورية، بقيت نازك تناضل مع رفيقاتها بلا هوادة، وتحرض ضد الاحتلال، فضاقت أعين الفرنسيين بنشاطها، وأغلقوا لها المجلة والمدرسة، ومنعوا الندوات الخاصة التي كانت تعقدها، فدخلت في مرحلة المقاومة السرية، وأسدلت الحجاب على وجهها لا لتجاري المحجبات، إذ كانت من الثائرات عليه، بل تستراً وتنكراً خلفه.

ولهذا كان لابد من إبعادها، فنفيت مجدداً إلى الأردن. ولما سمح لها بالعودة إلى دمشق عادت بشرط أن لا تقوم بأي نشاط سياسي معادٍ للفرنسيين. فتظاهرت بالانصراف إلى الأعمال الزراعية في إحدى ضواحي دمشق قريبة جداً من الفلاحين، وعاشت حياتهم وبينت لهم حقوقهم وحدودهم، وأن الأرض صديقة لمن يعطيها العناية والاهتمام.

ورغم نشأتها في ظل الإقطاعية والسيطرة العثمانية، ثم الاحتلال الفرنسي، اعتنقت بالفطرة والخبرة أراء اشتراكية في المعاملة والمعيشة، فأعطت الفلاحين حقهم في الأرض وفي العيش والدواء والسكن والتعليم، وكانت تعمل كالفلاحات تماماً، فاكتسبت حب جماهير الفلاحين في ريف غوطة دمشق.

وظلت السلطة تراقبها وتطاردها وتتعقب خطواتها، حتى فرضت عليها الإقامة الجبرية في مزرعتها الواقعة في قرية حزرمة -الغوطة الشرقية- على طريق النشابية. وما إن نشبت الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين في كل مكان، حتى هبت نازك وهي متنكرةً إلى جانب ثوار غوطة دمشق، تنتقل من جريح لآخر لتسعفه أو تنقله. كما تقدم المساعدات المالية الخاصة لأسرهم المنكوبة.

وقد أعجب المؤرخ اللبناني محمد جميل بيهم بمقالات نازك، التي كانت تكتبها في كبريات الصحف العربية والغربية حول مواضيع مختلفة، فتزوجا، وانتقلت الى بيروت حيث أسست جمعية «عصبة المرأة العاملة»، ثم جمعية «إخوان الثقافة»، وجمعية «تأمين العمل للاجئين الفلسطينيين».

لم تترك المناضلة نازك العابد أي كتاب مطبوع، لكنها تركت الكثير من المقالات والخطب المنشورة.

لعبت دوراً هاماً في النهضة المعاصرة وتركت بصمات هامة على تطور الحركة النسائية السورية واللبنانية.

وافتها المنية في صيف عام ١٩٥٩ م في بيروت عن عمر يناهز ٧٢ عاماً.

نشرت مجلة «مينرفا» رد نازك العابد على كراس أصدره جورجي باز يتعلق بعملها ونشاطها. يبيِّن التواضع الكبير الذي كانت تتمتع به. وهو التالي:

[كتب السيد جورجي باز كراساً يحوي ترجمة حياة الآنسة نازك العابد، ومنزلتها من العلم والأدب والخدمات الجلّى التي قدمتها لوطنها، فقام بذلك ببعض الواجب نحو هذه الأديبة العاملة.

وقد اطلعنا على الكتاب الذي أرسلته بعد اطلاعها على كراسٍ نشره تقديراً لأدبها وسمو أخلاقها، قالت:

(حضرة السيد جورجي باز!

تحية واحترام، اليوم عدت من المزرعة مع رزمة المنشورات، ولكم تعجبت لدى تلاوتها، وأصبحت بحيرةٍ لا أدري ماذا أكتب، وماذا أجيب؟ فلو كان في سيرتي ما يستحق النشر لكنت فخورةً إذ تولى الأمر هذا الفاضل الغيور المخلص

للنهضة النسائية، أما وإني أعتقد بأني لما أفي الخدمة حقها، ولم أقم بالواجب على كل فتاةٍ نحو وطنها وقضية جنسها، فلا يسعني أن اعتبر تنويهكم باسمي إلا من قبل التنشيط. وهذا أحسن مكافأةٍ على نيتي الخالصة، وعملي المتواضع، فإن كلمةً منكم تتوجها قرينتكم المحبوبة بتاج من حكمتها، هي أفضل مكافأةٍ وأجل شهادة. فأنا أعلن شكري الجزيل إليكما، واستبشر بنجاح القضية النسوية إن وضعتما الكف بالكف لنصرتها، وأنتم خير الأنصار. واقبل يا سيد الفاضلين احترامي الفائق واعتباري)].

مجلة «مينرفا» ١٧/ ٣/ ١٩٢٧م

نازك العابد

ماري عجمي
١٨٨٨ ـ ١٩٦٥

ولدت ماري عجمي في الرابع عشر من أيار عام ١٨٨٨م، في أسرة سورية من حماة كان جدها قد انتقل إلى دمشق قبل مائتي عام. بين ولادتها ووفاتها مسيرة نضال وأدب وحب وصحافة. عاشت إبان الاحتلال العثماني والانتداب الفرنسي على بلاد الشام. تلقت تعليمها في المعهدين الروسي والايرلندي اللذين كانا في سورية في مطلع القرن العشرين. عملت في التدريس متنقلة بين بلاد الشام ومصر والعراق.

أصدرت ماري عجمي مجلة «العروس» عام ١٩١٠م وكانت تعنى بشؤون المرأة، وكل ما يمكن أن يدخل تحت عنوان التاريخ والأدب وأعلام النساء. كانت مسألة تحرير المرأة هاجساً قوياً في فكر ماري وقلبها وحياتها العامة. فبالإضافة الى ما كتبته في العروس كانت تعمل على التحريض الاجتماعي في النوادي والجمعيات، ومن خلال الاتصالات الشخصية.

كان مراسل المجلة في بيروت بترو باولي، خطيب ماري عجمي يشحذ الهمم بمقالاته الحماسية تحت توقيع (الباتر). وقد جمع الاندماج الفكري والنضالي بين ماري والباتر بوثاق عاطفي، حملت «العروس» خبر خطوبتهما عام ١٩١٤م. وفي الوقت نفسه، تصدر عنوان المجلة العريض اندلاع الحرب العالمية الأولى. فضيقت تركيا الخناق، وأطبقت الحصار الاقتصادي، وكمت الأفواه بإغلاق عشرات الصحف. غير أن ذلك لم يوقف مسيرة الكفاح، ولا ردم القيم والمبادىء. وبدأت المواجهة، فحملات الاعتقال استهدفت قوافل الثوار الذين غصت بهم السجون في لبنان وسورية. ومن بينهم الكاتب الباتر، وقد نقل من معتقل عاليه الى سجن

القلعة في دمشق، فوفر على ماري رحلاتها المكوكية بين البلدين، ولا سيما أنها كانت تعاني من آلام مفصلية حادة.

ومن كان يسكن الأحياء الدمشقية القديمة، لا يمكن أن ينسى الشابة ذات السادسة والعشرين ربيعاً، تستعين بعكازٍ لتظفر بزيارةٍ خاطفةٍ للحبيب بعد ساعات من الانتظار. وما أكثر المرات التي عادت فيها أدراجها خائبةً تطوي رسائلها، تمني النفس بلقاء قادم.

لم تحمل إلى الباتر لواعج العشاق، بل حماسة الثوار. كتبت إليه: (أنت في سجنك أكثر حريةً من ملايين البشر تحت هذه السماء... ما أقدس ذلك الكهف الصخري تفترشه والرفاق. لقد كثر الهمس عن مغاور تكاد تطبق بالأرض، تعيد البلاد الى بدائيات العصر الحجري. وليعلم جمال باشا السفاح أن مقركم برج شاهق لايطول قمته إلا تحليق النسور).

وصفت ماري حال السجون والمعتقلات التي زارتها: (كنت أول من لبى دعوة بعض الأدباء السجناء، ومن الساعين لإنقاذهم... وجلهم من الأغنياء وأعيان البلاد، أُتيَ بهم الى الشام من كل أطراف سورية وشواطئها، ليلاقوا محكمة الموت العرفي جزاءهم... وجامع المعلّق جامع أثري قديم، يجري تحت ردهته الرحبة أحد فروع نهر بردى. كانت ردهته تضم ٤٢٠ سجيناً من كل طبقات الأمة. كان هذا السجن عبارة عن كهوفٍ صخريةٍ يتم الوصول اليها بثماني درجات. وكانت النوافذ صغيرة جداً يخال ناظرها أنها فوهة مدخنة، لما احتشد فيها من الأبخرة المتعفنة، وكنت أتمكن من محادثة من أريد من المعتقلين باستعمال قسطل المياه أو رشو الخفير بربع مجيدي. وإذا وقفت أُحدث أحداً من الأدباء السجناء، سددت أنفي بالمنديل لنتانة الروائح الكريهة التي يستنشقونها ولا يميزون،

وقد رأيت الخفراء يُخرجون جثةً من السجن، مضى عليها أربع وعشرون ساعة).

وظلت زياراتها تتوالى باذلة أقصى جهودها لمساعدة المعتقلين، أنقذت أحدهم بمساعدة ذوي النفوذ، وسرقة بعض أوراق التهمة. وكانت صلة الوصل بين بعض المساجين وأسرهم. إذعلمت أن لامفر من حكم الإعدام. وكانت المحاكم العرفية لا تسمح بدفاع المحامين عنهم.

تبوح بإيجاز وألمٍ شديدين: (نعم أنقذت بعضهم من السجن، والبعض الآخر من الإعدام، ولكني لم أسلم من الظنون، وقد خيل للناس أني قبضت أجرة على مساعيّ، لأن السواد الأعظم بيننا تعوّد أن يقتل المروءة بتصويب سهام الظنون إلى ذوي النخوة، بدلاً من تشجيعهم والإعجاب بهم، فكيف لاتخور العزائم وتنقبض الأكف وتخور الهمم).

ويوم كان بعض الرجال ساكناً هياباً إبان المحاكمات التي عقدها جمال باشا السفاح، وأحكام الإعدام التي أصدرها زبانيته ونفذها جلادوه في دمشق وبيروت، لم تقف ماري عجمي مكتوفة اليدين، بل تحدت السفاح ورموزه فزارت أبطال الوطن في زنزاناتهم في سورية ولبنان غير هيابة ولا وجلة. وتشهد العاصمة دمشق على ذلك اليوم من عام ١٩١٦م حين اقتحمت المناضلة ماري مقر الحاكم العسكري السفاح جمال باشا تهوي بعكازها على رؤوس أنفار الحرس، والطاغية يأذن لها بالدخول رغماً عنه، تفاوضه بتوكيل لجنة للدفاع عن الثوار، أحرار الفكر الأبرياء، وتحسين أوضاع السجون، وتلح الطلب بالفصل بين المعتقلين السياسيين وشراذم المجرمين، في تجاويف الكهوف. ولما قابل طلبها بوعود كاذبة، هاجمته بشدة في مقالتها التي كتبتها بعد مقابلتها له (كان يلقب بالسفاح لهول ما فعله بالمناضلين في سورية ولبنان) فوصفت هذا الطاغية كما رأته ببصرها وبصيرتها. وكادت مقالتها تودي بها وتلحقها بالشهداء... تقول: (لابتسامة الجزار، تكشيرة الذئاب.

ولصوته المحمل بالوعود فحيح الأفاعي واذا تلعثم... بلع ريقه، أدركت أن النية قد بيتت، والثعبان يبتلع سمومه)، (بين ساحة الشهداء وسط بيروت وساحة المرجة قلب دمشق، حواجز استعمارية لا يمكن أن تفصل الشقيقتين، وفجر السادس من أيار أثبت توءمة سورية ولبنان).

تقول الأديبة د. ناديا خوست: (كانت ماري عجمي متألقة الروح، وطنيةً حادة البصر والبصيرة جريئة وعملاقة، في موقفها من شهداء أيار، ونضرتهم في قلبها، ليس فقط لأنها أحبت واحداً منهم (بترو باولي) بل لأنها قدرتهم جميعاً، واعتبرتهم قمة النضال. وظلت تفخر بمن تعرفه منهم. وكافحت كي تخفف الحكم عنهم، فكانت لغتها متضرجة كالفجر، تروي ما نقل عنهم، يحزنها موت نسائهم من الغم... ولكنها لم تقدر تماماً أنهم أولى ضحايا المؤامرة الاستعمارية الغربية...).

كان موقفها من الصهيونية واضحاً منذ البداية، فنشرت في مجلتها خطابان للشهيدين شكري العسلي ومحمود المحمصاني يؤكدان الكشف السوري المبكر لمخاطر الصهيونية.

كما نشرت تقريراً مطولاً ترجمته عام ١٩٢١ م تحت عنوان «مشاريع العمران في فلسطين»، فضحت فيه المؤامرة الاستعمارية الصهيونية على فلسطين والنشاط الصهيوني لتنفيذ وعد بلفور، بدعمٍ من الحكومة الإنكليزية التي دعت في أيار عام ١٩١٨م وفداً يهودياً للمجيء إلى فلسطين، لتنظيم شؤون اليهود وإنشاء عدد من الدوائر تهتم بقضايا الاقتصاد والتعليم وتنظيم الأعمال. وأشار التقرير أيضاً الى شراء الأراضي وبناء المنازل وتوزيعها على اليهود المهاجرين بالتقسيط. و(تجميل) مدينة القدس بعد تدمير المدينة القديمة والاستيلاء على مياه نهري الليطاني والأردن والاستفادة منهما في توليد الكهرباء والري مما يساعد على هجرة وتوطين مئات الألوف من اليهود في فلسطين.

وكتبت ماري عجمي بعد ذلك، العديد من المقالات التي تفضح المطامع الصهيونية. وفي عام ١٩٢٢ م نقلت صورة بناء المستوطنات على أراضٍ عربية بيعت بثمن بخس وأطلقت النبوءة (أن الـ ١٥٠ ألفاً صهيونياً، المقيمين اليوم في فلسطين هم من استوطنوها في العهد التركي برشوة الموظفين على الرغم من الأمر القاضي بمنع هجرتهم اليها... على أن مشكلة فلسطين ليست فردية أو جماعية، بل سياسية دولية، وفلسطين لاتتسع مساحتها لأن تكفي اليهود وطناً، بل سيتجاوزونها في المستقبل الى سائر البلدان العربية).

ولا بد من السؤال.... هل تميزت نظرة ماري عجمي، بمثل الحدس الذي التقطت به مسألة فلسطين والموقف من شهداء السادس من أيار، في رؤيتها العامة للانتداب الفرنسي والتطورات التي جرت على الساحة العالمية وقلبت موازين القوى بدءاً بثورة أكتوبر وأثرها في حركة التحرر العربية التي وجدت سنداً لم يجده رجال أيار؟. ولعل ذلك يبين خطر المصادر الوحيدة التي كانت تعتمد عليها في الثقافة، ولعل أزمة التنوير كونه استند الى الثقافة الغربية ليحارب الاستبداد التركي، الذي ظل يستند اليها بعد أن أصبحت البلاد ضحية سايكس بيكو، وأصبحت أوروبا ترسل المحتلين المستبدين الى العرب. تقول ماري: (إن الحلفاء قد حرروا العالم، فيحق لهم المجد والفخر. لكنهم إذا حرروا الشعوب، أفينكرون عليهم حق الاستقلال؟ إن بريطانيا محررتي وفرنسا مرشدتي، أما سورية فأمي، وأمي حرة فلا تقيدوها).

لكن الاحتلال الفرنسي داس أوهام ماري عجمي، فلم تعد فرنسا لها مرشدة نتيجة الممارسات الاستبدادية والقمعية التي عامل بها بلادنا وشعبنا.

يقول الأديب والمؤرخ السوري عيسى فتوح: (وكما لعبت ماري عجمي دوراً بارزاً في محاربة الاستعمار التركي. فقد لعبت الدور نفسه في محاربة الاستعمار الفرنسي الذي لم ينقلنا إلا من تحت الدلف الى تحت المزراب). وقد جعلت ماري مجلة «العروس» منبراً جديداً لمحاربته ورفضت الانتداب، قائلة: (من ذا الذي يقول إننا أمة لايليق بها أن تمنح الاستقلال. ولاتعرف أن تحكم ذاتها

بذاتها). كما قالت: (لم تحمل إلينا فرنسا غير المحاكم المختلطة التي يئن منها القوم، والديون المتراكمة، والضرائب التي تتكاثر من غير إصلاح، والشركات الفرنسية التي تطرد هذا، وتستبد بذاك دون أن يسمع أحد شكواه ولو ملأ أنينه عنان السماء).

وأشارت ماري إلى التأثير السيىء للاحتلال على الاقتصاد الوطني والثقافة والتعليم. وتحدثت عن الطابع القمعي الذي حمله الاحتلال لسورية. ورافقت عام ١٩٢٣م وفداً من أمهات المعتقلين السياسيين الى جزيرة أرواد لزيارة زوجة مسؤول فرنسي وطلب الحرية للمعتقلين. وقد ردت على الفرنسية التي سألتها ماذا تنشرين؟: (لاتخشى ثورة ياحضرة الكونتيسة، فإن إدارة المراقبة لاتخرج صحيفة سياسية إلا بعد قلع أضراسها، فتصبح كما قالت السيدة خالدة أديب كفم العجوز).

أسست ماري «النادي النسائي» في حي القصاع بدمشق، ثم جمعية «نور الفيحاء» وناديها، ومدرسة بنات الشهداء عام ١٩٢٠م. وترجمت العديد من الكتب والمقالات.

توفيت ماري عجمي في ٢٥ كانون الأول عام ١٩٦٥م، ودفنت في مقبرة الروم الارثوذكس وسط حيٍ دمشقيٍ قديم.

المصادر

١ - حسن العواقب «رواية» - الهوى والوفاء «مسرحية» . . . فوزية فواز ١٩٨٤م - المجلس الثقافي للبنان الجنوبي - بيروت .

٢ - الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . . . زينب فواز - الطبعة الأولى ١٨٩٣م مطبعة بولاق - القاهرة .

٣ - الرائدة المجهولة زينب فواز . . . حلمي النمنم - دار النهر للنشر - القاهرة .

٤ - النهضة والاستبداد . . . د. عبد الله حنا ١٩٩٤م - دار الأهالي - دمشق .

٥ - المرأة العربية في الدين والمجتمع . . . حسين العودات - دار الاهالي - دمشق .

٦ - أدبيات عربيات . . . عيسى فتوح ١٩٩٤ الندوة الثقافية النسائية - دمشق .

٧ - تحرير المرأة . . قاسم أمين - مكتبة الترقي - القاهرة .

٨ - حقوق المرأة في الكتابة العربية منذ عصر النهضة . . . بوعلي ياسين ١٩٩٨م - دار الطليعة الجديدة - دمشق .

٩ - (١٠٠) عام من الرواية النسائية العربية . . . د. بثينة شعبان ١٩٩٩م دار الآداب بيروت .

١٠ ـ الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل . . . محمد كاظم مكي ١٩٨٠م ـ دار الأندلس ـ بيروت .

١١ ـ البحث عن تاريخنا في لبنان . . . علي الزين ١٩٧٣م .

١٢ ـ المرأة في التاريخ والمجتمع . . . د . بشرى قبيسي ١٩٩٥م ـ دار أمواج للنشر ـ بيروت .

١٣ ـ سابقات العصر . . . وداد سكاكيني ١٩٨٦م ـ الندوة الثقافية النسائية ـ دمشق .

١٤ ـ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . . . عمر رضا كحالة .

١٥ ـ هاجر ـ كتاب المرأة ١ . . . الطبعة الأولى ١٩٩٣م ـ دار سينا للنشر ـ القاهرة .

١٦ ـ هاجر ـ كتاب المرأة ٢ . . . الطبعة الأولى ١٩٩٤م ـ دار سينا للنشر ـ القاهرة .

١٧ ـ وثائق الندوة الثقافية للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي . . . بمناسبة مرور ١٠٠ عام على رواية حسن العواقب ـ بيروت .

١٨ ـ رائدات في الحركة الأدبية السورية . . . محاضرة د . ناديا خوست ـ مكتبة الأسد ـ دمشق .

١٩ ـ مجموعة مجلة «العروس» . . . ١٩١٠م ـ ماري عجمي .

٢٠ ـ مجموعة مجلة «مينرفا» . . . ١٩١٦م ـ ماري يني .

الفهرس

الباب الثالث

الباب الرابع

نماذج من كتابات زينب فواز

٣٥٠٠ط١/٥/٢٠٠٠

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشـق - ٢٠٠٠

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية

٢٠٠ ل.س